سلام إبراهيم

سرير الرمل

قصص

الأعمال الكاملة 9

ألف ياء
Alf Yaa

سرير الرمل

المؤلف: سلام إبراهيم

الكتاب: سرير الرمل (قصص)- الأعمال الكاملة 9

صدرت النسخة الرقمية: حزيران/يونيو 2026

الطبعة الأولى 2000، دار حوران - دمشق - سورية.

- **الناشـر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net

- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobiو/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.

  «ألف ياء AlfYaa»ناشـرة للكتاب فقط وهي

  غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأعمال الكاملة 9

سلام إبراهيم

سرير الرمل

قصص

إهداء

إلى ناهدة ....

حبيبتي .... زوجتي .... صديقتي

AlYaa

الفهرست

تحجر..9
سرير الرمل..11
التآكل 25
جنية الأحلام...31
جورية الجيران..45
أزقة الروح...57
اختطاف...65
جرح الحمامة..75
نخلة في غرفة...83
أخيلة العيون...95
رؤيا الحفيد...103
قسوة..119
أرباب الرعب...123
لا أدري...131
العصفور...135
حصار يوسف...139

تحجر

يحتفي بمنتصف النهار رغم حزنه المقيم. السماء بيضاء دانية تنث رذاذاً خفيفاً. يأسره الزحام وقسمات الوجوه الخاطفة الممتلئة بشأنها البشري ويشغله عن اضطراب سكنه. أعدم كل الوسائل دون أن ينجح في تحريك وجهها الذي قسا وتصخر. رشقته الريح بخفقة مثل صفعة لحظة دلوفه الساحة المجاورة للكاتدرائية. لمحها. اصطخب نبضه، وارتجف وكأنه يراها لأول مرة ويشعر بحبها المباغت، مثلما شعر قبل عشرين عاماً في ظلال جدار مسجد جامع. اعتقد بأنها رأته.. فغادرت الساحة. ناداها باسمها:

- ......

طفق يغلي، ففي البيت رفضت فكرة خروجهما معاً. كرر النداء:

- ....

دفعت عربة أصغر أبنائهما الثلاثة الذي لم يجاوز العام.. وعبرت الشارع. فَارَ. كبتَ فورانه. هرول. حاذاها، وقال بصوت مرتبك، خفيض:

ـ مساء الخير.

التفتت على مضض، فأدرك أنها سمعته من أول نداء. همهمت ورمقته بعينين احمرتا وضاقتا وكأنها خرجت لتوها من نوبة بكاء، وقالت:

ـ نعم!.

بمعنى ماذا تريد؟!.

انتبه إلى ابنه يخبط بأصابعه الناعمة غلاف واقي المطر النايلوني ويلاحق عربة يجرها حصان توزع الحلوى على المارة. قال:

ـ خرجتِ؟.

ـ مختنقة.. ممنوع واحد يتمشى!.

صمتَ... صمتتْ.

دلفا في شارع خال. ينصتان لوقع خطواتهما المتنافرة الرانة في السكون.

قال في وجل:

ـ أنتمشى معاً؟.

رمقته.. فذكرته بعيون عشرات الفتيات اللواتي كنَّ يجفونه في صباه بغتةً ويتعلقن بشبان آخرين.

ـ أنتظر صديقتي.. لنزور الكاتدرائية.

ألجمته. يرمي خطوه. يرميان خطويهما في الصمت الكظيم. أحجار بشرية متحركة في فراغ الشارع والنهار. أحس بنيران تلتهم أحشاءه. تأرجح على حافة النحيب. استدار ملقياً تحية الوداع، وثمة دمعتان تحجرتا في مقلتيه. قصد البار.

8/1/1997 الدانمارك.

سرير الرمل

طفا على بحر أحلامه، من أمكنة طفولته الموحشة التي كان يجد نفسه في تيهها وهو يغفو بفيء جدار، ظلال نخلة، باحة مسجد حيث كان يلوذ مذعوراً من عقاب أبيه لذنوب لم يرتكبها. وقتها كان يشعر بنفسه وحيداً ضائعاً في مدن لا يعرفها ولا تعرفه.

برك في الصمت وبقايا مناحي الأحلام تتذاوى في صمت وظلمة الغرفة الضيقة، فوجد نفسه ملقى على أبواب السحر في

رمل سرير الزوجية البارد، وإلى جواره يغفو متكوراً جسد ابنه الصغير الذي يتسلل من غرفته منذ أول ليلة قررت فيها هجر غرفة النوم والانتقال إلى غرفة الأطفال.

هذه ليست أول مرة تحمل جسدها الحار بعيداً عنه، وهي العارفة بمدى ولهه به، فطوال الليل لا يكف عن الالتصاق بعريه اللدن الساخن حتى أثناء غفوته. يفعل ذلك منذ واحد وعشرين عاماً في بيتهم الأول على حافة الصحراء بجنوب العراق، وفي بيوت سرية أثناء فترة هروبه من الجبهة، في قاعات الطين والكهوف بين رجال العصابات في الجبل، في معسكرات اللجوء التركية والإيرانية وهنا في الدانمارك، على الأفرشة الوثيرة، الخشنة، على التراب، على الصخور، في البرد والحر، في الليل والنهار.

انزاحت مزق أمكنة الحلم الموحش فتوضح المشهد حوله تماماً. ها هو في قفر السرير الشاسع وحيداً يقترب من عامه السادس والأربعين متعباً منهوكاً، يقاوم متشبثاً بالحياة.. يعطف على وحدته تسلل ولده الصغير الليلي واندساسه لصقه في يم هذا الكون الفارغ دونها.

بحلق بعينين فارغتين في هوة النافذة المائلة فوقه.. في ظلامها الذي بدأ يختلط ببهوت السحر الخافت. وزحفت كفه المسكينة الناحلة نحو جسد صلاح العاري الساخن الطالع من بحرها الفوار، المجسد لمعنى ذلك الالتحام المتجدد في مطلق الكينونة البشرية. مسد جسد طفله الناحل متأرجحاً على حافة البكاء والجسد الطفلي تحرك في غفوته نحوه ليلتصق بصدره

العاري لافاً بصمت ذراعيه الصغيرتين حول عنقه المائل فوقه، وفيما هو مأسور العنق برخاوة الساعدين الغضين الغافيين ألمت به رجفة خضته مثل عصف ريح مجنونة. اهتز.. تزلـزل.. اختض بصمت كابتاً نحيب مفجوع انفجر في أعماقه، فها هو يكاد يقدم في لحظة ضعف أبدية مثل كل مرة، حينما كان يتسلل هارباً من رمل السرير المشترك الخاوي إلى الصالة ليبحر في الصمت ثم في بحر Bach المتلاطم الذي يلقيه عارياً مستلباً إلى ساحلها القريب النائي، المبـذول الصـعب، الراغـب الممتنـع، فيتسلق السلالم المؤدية إلى غرف النوم بخطى وجلة خائفة لا يدري هو ممن؟ محاولاً حبس صرير دكات السلالم الخشبية الصارة بصخب لا يناسب جلالة صمت ليالي هذي البقاع. كان يتسلل منهك الروح والمعنى، مخذولاً شاعراً أنه من دونها هباء، وما أن تطأ قدماه مبتدأ الفسحة الصغيرة الكائنة بين غرف النوم الثلاث والحمام حتى يستعيد ذاك الضجيج المبهم في رأسـه مجده، فيخوض به في صمت المكان الضيق في الفسحة الماحقة تلك، ضجيج ليس له معنى، لكنه يزخر بكل المعاني. يصبح في نقطة حاسمة، في الصمت، في الرواق العلوي، يخلد في حيرته واقفاً في النقطة الحرجة، وبالعكس من حيرة شخصيات ألف ليلة وليلة غير العارفة بما يختبئ خلف البيبان، يكون هو عارفاً بخواء الغرفة الضيقة التي لا تسع إلا لحجم السرير العريض المشبع برمل الخصام المتحول إلى قفر خاو، وبين باب الغرفة المجاورة الزاخرة بهم.. هي وسط الأطفال عارية شهية تجسد كل المعاني في ذلك الخلود المستكين إلى أنفاس أطفالهم. في اللحظة الماحقة تلك كان يجد نفسه ينساق مثل مخدر بالمعاني

نحو باب الوفرة.. باب الدفء.. ومن يقاوم باب عشتار العراقية. فينحرف مساره نحو باحة الزهر. يدور أكرة الباب، يدفعها بأناة، ويدب مثل لص رافعاً غطاءها، ليندس ملتصقاً بعريها المتجمر وكأنه كان ساهراً بانتظاره.

أزاح عن عنقه الذراعين الحارتين، عدل غطاءه ثم أرخى جسده في الظلمة والصمت متكئاً برأسه على حافة السرير في زاوية تتيح له الغور في صفحة السماء المرئية خلال زجاج النافذة العريضة التي تبدو وكأنها ملتصقة في السقف الاسكندنافي المائل مغالباً تلك الرعشة التي تجتاح كيانه الهش المهزوز.. ذلك الرجيف القادم من أعماق الروح.. من غور حرمانات صحاريها الغامضة التي توسعت وامتدت حال بلوغه سن المراهقة لتشل الكيان برمته في قساوة أعراف وتقاليد لا تعرف سوى عماء صرامتها فجعلت منه كياناً مشطوراً إذ تطوطم الجسد الأنثوي ذاهباً إلى مسافات الحلم متجرداً من وجوده المتحقق ليستحيل إلى مطلق جعله يهيم في الليالي عابراً سطوح الجيران متلصصاً على أفخاذ النسوة من الشبابيك المشرعة، خلال زجاج نوافذ حمامات البيوت، هو في النهار غير ذلك تماماً حيث يغور في كتبه ويحاور في الفلسفة والأخلاق والسياسة. من اللجة المضطربة انبثقت بغتة.. من الأعماق المجهولة عامت سمكة طرية لا مثيل لاندفاعها وجنونها. ومن اللقاء الأول على سطح بيتهم أرته كل ما اكتنز في كيانه من أخيلة مباهج الجسد الأنثوي.. وكان جسدها سبحانك يا ربي، سبحان كمال خلقك وما يزال له السحر والعبق الأول نفسه على الرغم من أنها ستدخل الشهر القادم عامها الأربعين.

انتشلته من هول ليله... من أخيلته وفورة جسده الغريب في اللحظة المناسبة، فقد استفحل وضعه البشري آنذاك بعد اضطراب الوضع السياسي وفقدانه الكثير من أحبته وأصدقائه المنشغلين بالسياسة بين مختف ومعتقل ومقتول ومهاجر فبات يلازم البيت، بعد اعتقاله وإجباره على توقيع تعهد بعدم ممارسة أي نشاط سياسي، طوال النهار يحملق بعينين فارغتين بأدراج كتبه غير قادر على مد يده نحوها. وما أن يحل المساء حتى يعب بصمت الكأس تلو الكأس ليرتحل بعدها في سفره الليلي المجنون في أسرار النوافذ والباحات والحمامات وغرف النوم. صار مثل مدمن يهب في السكون بخطى خافتة، ليفتح الباب الخارجية ويهيم في شوارع مدينته باحثاً عن نافذة، عن سياج بيت واطئ، عن فخذ عار، نهد، وهم. ولمرتين كاد أن يُقتل. ففي ذلك الوقت حيث يتحاشى الناس الخروج ليلاً في الشوارع خوفاً من مفارز الشرطة السرية المنتشرة بكثافة، الباحثة عن الشيوعيين الفارين، كان هو يجوب الطرقات أيضاً ليطل من شرخ نافذة، من درفة باب، من سور خفيض، من ثقب مفتاح على لحم أنثوي، لحم متطوطم في المخيلة الجانحة المنهوكة تلك. ولمرتين وبينما كان يتلصص سمع صوتاً يصرخ به:

ـ قف...!!!.

فيتصخر للحظة شاعراً بخور يُعقِل أطرافه قبل أن يلتفت نحو مصدر الصوت والبندقية المصوبة نحوه داركاً هول الموقف. وبغتة ودونما تفكير ينطلق والطلقات تأز بين قدميه، حواليه وفوقه. في الصبيحة التالية وجد نفسه مرة نائماً على العشب في بستان، وفي الأخرى في حديقة بيت أخته الكائنة في الطرف

الآخر من المدينة. وقتها قرر وقف ذلك الانقياد المخدر نحو الهيمان الليلي المبهم الخطير، لكنه يجد نفسه بعد الكأس الثالثة يحلق في فضاء حر يبيح له خرق كل الأعراف والمحارم، فلا يصحو إلا وهو في بقعة مجهولة جوار نافذة في فضاء غرفة ببيت والفجر على وشك الانبلاج.

في اللحظة الحاسمة انبثقت بكل مباهجها وحنانها ولهفتها لينسحر بجنون هواها واندفاعها السيل الذي لم يصده شيء لا الأعراف ولا التقاليد، ولا الوعيد على الرغم من أنها لم تبلغ الثامنة عشر حينذاك. انذهل من كل شيء. خُلِق من جديد غارقاً بمباهجها واجداً معنى جديداً لكينونته المضطربة.

تحت سماء النافذة الصافية الظلمة، الناصعة النجوم مسفوحاً على دكة نفسه يغط في موات إسفنج فراش الزوجية جوار جسد صلاح الحار المؤنس الغافي... مصلوباً على خشبته، يحملق بكل القصة.. بفراغ العتمة.. بخواء النفس البشرية.. بعنادات الروح المبهمة، صافحاً عن كل الخطايا.. كل الذنوب.. كل هول الحكايا... شاعراً نفس ذلك الشعور وهو يغفو في ظل نخلة.. في جدار طيني.. باحة مسجد... وقتها كان فداحة الشعور بالوحدة لم يختلط بعد بغريزة الجنس. كانت الوحشة صافية واضحة المنبع شأنها شأن هذي اللحظة في خلوته العارية في يم الإسفنج الميت تحت السماء الباهرة، جوار وهج جسد طالع من خلاصة جسده ومن فضاء وبحور كون رحمها الجليل.

ـ من أين لي إيصال فحواي نحوها؟.

وكيف يستطيع الكلام قول كل هذا؟.

وكيف بي يا إلهي وأنا لست شاعراً؟.

قال بهمس لنفسه وهو ما زال يغالب رعشته الماحقة المكثفة في موجها كل القصة.. كل الحيرة. فالأمر مختلف الليلة.. مختلف .. مختلف.. فإزاء تكرار هجرها المباغت لغرفة النوم متحججة تارة برائحة الشرب ولمشادة بسيطة تحدث غالباً بين حبيبين صغيرين فكيف بهما وهما يكادان يتجاوزا عامهما الواحد والعشرين قريباً دعاها للقاء في إحدى مقاهي المدينة وتحدثا بوضوح. أول مرة يلمس من كلامها تهديداً مبطناً بالافتراق وهي تضع شروطاً محددة لاستواء الوضع البشري بينهما متسائلة:

ـ لماذا تخرب حياتنا؟.

لحظتها شعر بفداحة المسافة الفاصلة بينهما. مدى نأيها عنه إلى تلك المسافة التي لن يبلغها أبداً وتذكر كفافي الذي كتب عن حال ذلك المستيقظ على علو الأسوار التي أحاطته في غفلة والمتسائل عن مبلغ سهومه عن ضجة البنائين والعمال والحجر. مثله تماماً وجد حاله في الطابق الأول بمقهى وسط Copenhagen قبالتها محاطاً بمنطق الكلام:

ـ أحبك.. معنى مطلق!.

لمح ظلال سخرية في توسع عينيها السوداوين المحزونتين الحائرتين بورطة الحياة القويتين المطالبتين بشروط محددة.

ـ في عينيك سخرية. لكن اسمعي أحببتك حرة دون أي مبغى عدا لذة القرب.. في عينيك تترسخ السخرية جلية لا لبس فيها..

AlYaa منتديات مكتبة

لكني وجدتيني ما زلت مثلما وجدتيني قبل إحدى وعشرين سنة على سطح بيتنا البعيد يعبد جسدك وروحك.. لكن بكرامة.. أحبك بكرامة.

ـ لا تحب مني إلا جسدي!.

احتدم في كرسيه وسط المقهى. التهب. تفتت وهو يشعر أنها أصبحت في كون ناءٍ وهي تلقي به من تلك الحافة العمياء إلى يم إبهام الجسد المكثف الأوحد لمعاني التخييل والتأمل. ها هي تلقي به في لحظة فريدة إلى ذلك الفيء الشارد، ظل الجدار في مدن طفولته الموحشة، في باحة مسجد خاضعاً لجلال المكان يرتل آيات كريمات تخفف من استلابه اللابشري المكثف في كف أبيه الغليظة الهاوية على طراوة لحمه الغض الشاعر بإيلامها حتى هذي اللحظة وهو يكاد يدخل السادسة والأربعين.

تأملها بصمت وعمق طويلاً.. ها هي بكل بهاء امرأة محبة تصل ساحل أربعينياتها تجلس قبالته تحاول فرض شروط لم تفكر بها مطلقاً أوقات الحب، الشباب، المغامرة. بل بالعكس كانت أكثر من الريح تحرراً تبغي الحلم دون قياس وتأخذه بكل ذنوبه دون أسئلة مما شجعه على البوح.. والبوح.. حتى أصبحت عارفة.. مصدقة.. أو غير مصدقة بكل قصص لياليه في بواكير مراهقته وانخذال نضجه.

تأملها قبل أن يقول كلاماً قبل نطقه يعرف أنه ورطة.

ـ أنت لا تدركين معنى كلامي.. أنت لا تدركين.. ظنك بسري بك مجرداً بالجسد ليس دقيقاً.. فبرغم عشرتنا الحميمة لأكثر من واحد وعشرين عاماً لم تبلغي ما يجول في أعماقي.. لست

فاجراً.. لست حيواناً مثلما تقولين.. وسوف لا أقربك البتة إلا عند رغبتك بي.

كانت تبوح بسخريتها بكل حركة من جسدها المتناسق وهي تنهض من كرسيها لتدفع الحساب ناظرة نحوه بشفقة. لحظتها قرر قطع عضوه دون ذل جسدها المهدد في حركة من ملامحها وخطوها ونبرة كلامها غير آخذ بالحسبان عسف الليالي الموحشة وتأريخ لحمة الجسدين اللذين كانا يتواطآن على الرغم من الزعل والخلافات في النهار فيتحدان معاً في كون السرير المعتم النائر بشذرات الروح والأنفاس واللهاث.

على درجات سلالم المقهى وهما يهبطان قال:

ـ بعد أكثر من عشرين عاماً... تسيئين فهمي؟!!.

ـ ....

احتدم لصمتها صارخاً:

ـ ولعي المجنون بجسدك... ليس ضعفاً بل محبة مطلقة.

ـ فضحتنا.. اخفض صوتك.

قالتها وهي تطأ بلاط الشارع مضيفة:

ـ تسع آلاف مرة سمعت هذي الأسطوانة المشروخة.

واستدارت ميممة شطر محطة القطار. لبث بمكانه مبهوتاً يرقب بعينين مكسورتين طولها المصبوب المفصل تحت بنطلون الجينز والتشيرت القصير ينتفض في مشيته العسكرية القافزة الواثقة. يتأمل قربها الداني ونيلها المستحيل. لم تلتفت.. حتى

عند انعطافها نحو موقف الباص جوار المقبرة.

ـ كلب.. كلب أنت.. كلب.. كلب أنتَ!!!.

صـ... صرخ مرتجاً غير آبهة بالمارة الداخلين والخارجين من المقهى والناظرين نحو وقفته الغريبة وسط الرصيف. وقفته الوحشية وملامحه المتلونة بين التصخر والتكسر، الانسحاق والتنمر.. الصارخ بلغة لا يفهمونها. عندما تمالك نفسه أمام مدخل المقهى حدق عميقاً بقصته فأدرك أنها وقعت حقاً على معناه الهش الذي حاول طوال عمره الخلاص منه فغامر بكل شيء. خاض أعنف التجارب. واجه الموت في المعتقل.. في جبهة الحرب الإيرانية ـ العراقية.. تجرع مقاوماً هشاشته، مأثرة الهروب من الجبهات التي عقوبتها الإعدام. التحق برجال العصابات في الجبل وحيداً. ذاق ويل فراقها فعاد سراً من أجلها فقط وتحمل عناء الاختفاء في بيوت الآخرين، ثم بصحبتها الحميمة بوحشية المعيشة بين ثوار الجبل.. وكان صبوراً.. أكثر صبراً من بغل جبلي.. يتحمل فحولة مقاتلين شباب أشداء يلعبون مع الموت كل لحظة وقادرين على المضاجعة من بعيد بنظرات العيون. تطرف بكل شيء متخيلاً أنه قدر على تجاوز محنة الحرمان الماحق وصار سوياً بقياس المعنى الفلسفي لكينونة الإنسان.. حتى أنه لحظة عبه من غازات الكيمياء الهابطة من السماء في غروب ليلة جبلية أعطبته فيزيقياً كل العمر كان يصرخ ليلة إصابته وسط نحيب المقاتلين المصابين.. يصرخ من فرط ألم الجسد المحترق.. حرقة الجفون المطبقة الراجفة المصلية بالخردل والجنون.. وصوتها الواثق الذي جعله يتجرع كل ذلك الألم اللابشري:

ـ ماذا بكَ يا حبيبي.. كن قوياً.

لحظتها وهو على مبعدة خطوة من الموت، استهجن تذلُّله المهين لقدر لحظته، فلزم الصمت جارعاً طعم النار المستعر بجسده طوال تلك الليلة الليلاء وسط صراخ المصابين المتكدسين في غرف فصيل الإسناد.. وها هو هنا بعد رحلة عذابات السفر بين معسكرات اللجوء.. وامتحانه لذاته العنيدة. فقد ترك التدخين بلحظة مستمتعاً بعبق آخر سيجارة في العمر قبل ثمان سنين.. جرب كل العنادات يركض.. يسبح.. يمشي من مدينته إلى المدن المجاورة معتقداً أنه حقق كل المعنى البشري الذي خاض من أجله المتصوفون دروب العذاب في أزمنتهم.. فوصل الكمال.. هذه اللحظة النشوة التي جعلت منه شبه سوي.. ها هي تتفتت في وقفته المسلوبة أمام مدخل المقهى وعيناه مسمرتان على لحظة غيابها في ثنية الشارع الضاج الأخرس.

ـ أي امتحان عسير هذا يا رب الجنون.. أي؟!!.

لحظتها استدار نحو عمق المدينة وتاه في باراتها صعلوكاً جديراً بالخسارات يعب البيرة ويرقص معانقاً أجساد النساء الدانماركيات الصبايا والعجائز.. رقص ليلتها حتى سكرات الليل الأخيرة.. حتى تباشير الصباح.. وملأ الشوارع صراخاً مجنوناً. أشبعها شتماً.. توسلاً.. طعنها في القلب لحظة غضب وأحياها، بكى على صدرها وغفا. لحس حلمتيها وقطع اليسرى بأسنانه المتوحشة.. فعل كل ذلك في الطريق الزراعي المقفر المظلم من المركز حتى منطقته الكائنة في الضاحية الجنوبية. ومنذ ذلك الفجر المكتظ بغناء العصافير وملمس أجساد رشيقة طيعة

تتماوج في يم الموسيقى دون عناء.. دون تاريخ.. تحيا مطلق لحظتها الشاردة في بحر العمر الناشف.. وجدها نقلت كل أشيائها من غرفة نومهما.. الملابس والحقائب والصور.. ليلتها ألقى بجسده على وثارة إسفنج السرير وكأنه مبغى لحظته القاحلة.

في الصبيحة التالية.. ضاع الكلام.. تجوهر المعنى.. واستتب العناد.. فهي أمعنت في صمتها المكين متحاشية أي موضع قد يستدعي الكلام المشترك.

الليلة السابعة لهجرها المخيف.. جنتهما أقفرت..

الليلة السابعة..

الليلة السابعة يرزخُ هو بقفره الجديد في كون السرير الخاوي دون قدها الممشوق الضائع في بعثرة غرفة الأطفال المجاورة..

قاوم تلك الليالي السبع بجدارة.. تكثف في روحه ناسياً كل القصة. تلمس جسد ابنه الحار بأطراف أنامله المرتعشة قبل أن يغادر السرير. فتح باب الغرفة الخشبي ودلف إلى الفسحة الصغيرة الكائنة أمام غرف النوم. ينقل خطوه الحذر مخففاً قدر الإمكان من صرير الأرضية الخشبية. امتدت ذراعه في العتمة الباهتة. أطبقت كفه على تدويرة سياج السلالم واستكن للحظات مترسباً في قعر الفجر الوشيك:

ـ هل تغفو الآن ملأ جفونها؟!!.

التفت نحو جسد الباب المسدود. تخيل قوامها الممشوق متوسداً المستطيل الفاصل بين سرير الطفلين. التفت بكل خفقه..

وتمنى لو أنه لم يتطرف في المواقف إلى هذي الحدود التي أصبح بعدها التصرف يُقرن بموقف الكلام.. التفت بكل نبضه وتسائل مثلما تساءل في طفولته وهو يستيقظ من غفوته في فيء جدار.. باحة جامع عن سر إيذاء الآخرين له برغم حبه لهم.. وقتها كان يعجز عن جعل الآخرين يدركون مشاعره مثل هذه اللحظة حيث يقف مصلوباً على حافة الفجر.. على حافة ساحلها.. في الغور المهلك.. في الفسحة الضيقة الفاصلة ملويّ العنق في الصمت، في العتمة الباهتة، مسكيناً لا يعرف أين سيرسو به المطاف.

هبط على السلالم متلمساً حافاتها بأطراف أصابع قدميه العاريتين.. هبط إلى خلوته في عتمة الصالة.. هبط إلى المطلق.. إلى Bach استلقى على الأريكة قبالة النافذة العريضة المطلة على حقول مترامية يعريها الفجر الهابط.. بعد الكأس الرابعة تأرجح على حافة البكاء.. اغتسل بفضة الفجر الجليل، العارف فداحة ألمه..

بعد الخامسة.. وجد نفسه رائقاً مثل الفجر الشاسع الممتد خلف النافذة، في غور الـ Sonate.

شفَّ.. شفَّ.. وورد شقائق النعمان الذي بلون دمه المسفوح يتألق في ذرات الفضة المنهمرة من السماء.. شف متجرداً من كل شوائب الفضة راحلاً في مدن Bach.. مدن الألم والمعاني الغامضة.. مدن الأحلام المستحيلة.. فاستحال إلى وردة شقائق نعمان تتمايل في ريح الصباح دون أسئلة.. دون تفسير.. بذل مطلق. فتح درفة النافذة فرشقته نسمة الصباح مصحوبة بضجة

العصافير وغناء بلبل يحط على شجرة كستناء قريبة.

صحا في غور الفجر.. مُلقياً عن كاهله كل الأسئلة. ارتقى درجات السلالم سارحاً.. مسحوراً بمعنى ورد الحقول تغريد البلبل.. نسمة الفجر.. ودون تردد خطى نحو باب غرفة الأطفال. دَورَ أكرتها، فتجسدت تحت ناظريه.. في المستطيل الضيق، محسورة الغطاء والثوب، مطلية بضوء الفجر الساقط من النافذة. تدفن وجهها في مخدتها المعصورة بين ذراعيها، وبطنها الضامرة تلاصق الفراش المبعثر. هبط مثل ملاك جوار هذا الطين الصافي المسفوح المنحوت المتخلق في هذا التكوين الساحر الآسر منذ بدء الخليقة. تأمل السر الإلهي المتجسد في نحت الأصابع ربلة الساق استدارة الفخذ. ومتانة الردفين المتناسقين في ربوتهما المهلكة. نضا عنه القميص والبيجاما وانطراح جوارها. مستعيداً احتدام فراش المحبة وشاعراً بوهجها الحارق يسعر كل عضو فيه رغم أنه لم يلمسها بعد. ومثل طفل لم يبلغ الفطام بعد امتدت أصابعه تحت ثوب النوم نحو تكويرة النهد المتوتر في غفوته. وما أن بلغت الحلمة المستيقظة حتى انتفض الجسد مستنكراً مبتعداً. فجفل مثل طفل مذعور وهي نصف قائمة، نصف مستيقظة، تهمس بغضب:

ـ قلت لك لا تقربني أبداً.

Roskilde/ Danmark - 1999 /20/7

التآكل ...

في الخامسة مساء، تدخل البيت بوجهها الواجم. تلقي حقيبتها على طاولة المدخل، مطلقة زفيراً ممروراً. تنفرج قسماتها قليلاً لحظة هروع طفليها راكضين من الصالة نحو المدخل الضيق. وما أن ينشغلا عنها عائدين إلى متابعة برنامج الأطفال حتى يستعيد وجهها المجهد برمه الذي لا فكاك منه. لا يحرك ساكناً. يلوذ على الأريكة السوداء الوثيرة بطرف الصالة متصنعاً متابعة فلم الرسوم المتحركة، بينما حواسه منشغلة بمقدمها،

الضائق من إيقاع اليوم.. اللحظة. لقد مل من استنهاض مرحه القديم، الذي كان يستمده من العشرين عاماً التي قضياها معاً في مكانهما الأول بمدينة محاطة بالصحراء وكأنها واحة حيث المشاعر تستعير وهجها من جمر الرمل، ثم رحلة العذاب في قساوة الجبل ورجال العصابات الحالمين الذين أذاقوه ويل الغيرة وهو يرصد فوران الشهوات المحتدمات في هيجان العيون المقموعة بنواميس النضال، كان يتذكر نضالها المضني من أجل مقاومة سطوع رغبة الأجساد الصلبة الطافحة بالشهوة في صمت النظرة، في نغمة النبرة المرتجفة. وكان يلزم الصمت وشبه الحياد. كان يجد لذة فريدة، أكثر عمقاً من لحظة الولوج بها والتماهي، في لحظة إفضائها له همساً وهما يتوسدان الأرض على فراش رث في غرفة طين تكمن في سفح جبل عن اكتشافها فحوى ود رفيق جعل من نفسه أكثر حرصاً من أخ قروي. لحظتها يشعر بالزهو وهو يكتشف عنف مشاعرها وشدة تشبثها به في اضطراب وضع بشري في تلك الأماكن النائية ووسط خليط غير متجانس من البشر.

ملّ محاولاته البائسة بتصنع المرح والشوق لحظة رجوعها من عملها في الكومون وسؤاله البليد عن صحتها ويومها الذي صار لا يعنيه، مثلما صار حاله لا يعنيها. لم تسأله يوماً عن أحواله إلا على مضض ولضرورة تستدعيها تقاليد المجاورة، فكيف بالعيش المشترك، وطامة عذاب ليل السرير. أصابعه المخذولة، الراجفة الساهرة الحالمة المفرودة بتوجس جوار الجسد العاري تماماً والراقد لصقه، المعطية ظهرها اللدن الباعث نيران حارقة كأنه فوهة فرن خبز، والمتصنع غفوة

عميقة، غير مبالية بالشوق المنبثق من أصابعه السادرة في حلمها المستحيل، والتي تنكمش مخذولة بعد جوبانها في تلك الأرجاء الأليفة التي عادت نائية في لصوقها الوثيق.

ـ مرحباً.

يلتفت نحوها، ترميه بتساؤل، يدرك معناه فقد كف منذ أيام عن محاولاته الليلية العقيمة في استرجاع مجد الاحتدام القديم المتلاشي في نواح لا تطالها إلا الذكرى.

ماتت أصابعه.

ماتت.. لحظة انبعاث سؤال بديهي عن معنى تعريها الليلي وتوضيبها السرير بحيث لا بد من ذلك الاحتكاك المدمر، احتكاك كان يفضي طوال عشرين عاماً إلى ذروة عرفها الإنسان منذ آدم، لها رواء الماء الذي لا طعم له.

ـ أهلاً.

يقولها بارتباك ويعود إلى تحديقته الشاردة في ألوان الشاشة المنقذة.

تزفر بعنف، وتبدأ كشأن يومها في اللوم التفصيلي عن عدم ترتيب البيت، فوضاه، تعبها. يسدر بعيداً عن رتابة النق اليومي، حالماً بعالم غير هذا، بامرأة غير هذي الشاكية النادبة المكلمة حالها طوال فترة وجودها القصيرة في البيت.

ينتظر بتوتر انقضاء طقوس وجودها الخاطف، المشغول بين كيل اللوم وتناول وجبة العشاء، ومهاتفة صديقتها الدانماركية، معلمة اللغة في مدارس اللاجئين. يمعن التحديق في لحظاتها

المرحة تلك وهي مندمجة في حديثها. رغم عتمة غبشة المساء كان وجهها الشاحب يتضرج بحمرة حب الرمان، حمرة تحيله إلى ليل سطح بيت أهله في الحي العصري عندما صارحته هي بحبها والتقته في اليوم التالي وغابا في أتون العناق والتقبيل، وقتها كان لا يتجاوز العشرين وهي بنت الخامسة عشر، التضرج الآسر الذي لم يره مطلقاً ما أن بلغا الدانمارك، ها هو يراه بوضوح في لحظة وجد هو خارجها تماماً. إنها تعانق سماعة الهاتف ببهجة لا شبيه لها سوى تألق ملامحها لحظة الذروة في الفراش أيام عزهِ القديم.

يستعجل فروغها من طقوس ساعتي المساء. ما أن تضع سماعة الهاتف حتى يتعالى صراخها المتذمر. فيتشنج جسده في لحظة خبرها من قبل، عند اعتقاله في عتمة أقبية رطبة، وهو يتلقى السياط، رجة سلك الكهرباء.

يتشنج جالداً حواسه ومتصنعاً السكينة والهدوء.

- شبيج.. يا عزيزي شبيج.

- ما بي شي.. سلامتك!.

تقولها بسخرية، وتستدير لتصعد سلالم الدرج الخشبي المؤدية إلى غرفة النوم.

تلك اللحظة.. ما أسعدها!! يطربه وقع أقدامها الصاعدة، وكأنها وقع أقدامها قبل عشرين عاماً وهي تتسلق خلسة سلالم بيت أهله لأول مرة حيث كان يأخذها إلى حضنه على الفراش الذي يعده خصيصاً لمقدمها الحلم وقتها.

يتوضب ويهدأ كل شيء لحظة غيابها، يصعد مع الأطفال إلى غرفتهم، يسرد لهم قصة، ولا يكف إلى أن يسمع انتظام أنفاسهم.

يتسلل في هدأة الليل منحدراً بحذر شديد في هوة السلالم، في سكون الصالة يفض كدره المقيم بطلاوة الكأس، يسفر في تعب حاله، شارداً، حالماً بغلالة سرابها القديم الذي يتراءى حيناً في الحلم، ويعري نسوة يراهن في المسابح، في المجلات، في الشواطئ، في حدائق الجيران عند الأصياف الحارة، يغور في الصمت، في التراب، في رثاثة الجسد المعذب وهو يتحول إلى ذات مفرغة من المعنى بعد الأربعين.

.. وحيداً في عمق الليل يدور أقنية الستالايت، فيعثر على قناة ألمانية تعرض المباهج الرخيصة.

يبدأ بالارتقاء، لينحدر بعدها إلى مسافات ذل فظيع. فيعبّ الكأس بعد الكأس، ناسياً لحظة التفريغ، ناسياً فرط الكؤوس محنة روحه اللائمة نفسها، عقب الوصول إلى الذروة، والهروع إلى مرآة المدخل الكبيرة، وصراخه المهموس، المذبوح:

ــ ولك صار عمرك خمسة وأربعين سنة.. وبعدك تضرب....!!

يلطم جبهته. يفزعه تشوه قسماته المتشظية بعمق المرآة.

أنا ناحل وأمشي مكابر

تراني

وأجلد.. خاف عدواني

تراني

ينصت لنواح سورية حسين*. يتأرجح على حافة النحيب. يكتم نشجه المفجوع. يتشظى لاطماً قسماته، صدره، بطنه، قفا رأسه، يكلم أشباح روحه النابضة، ويعب من الخمرة عباً. تنهكه الأغاني، ينهكه النواح.. ضرب الجسد، فيخوض في يم الألم مترنحاً في مشيته نحو السلالم الخشبية خاوياً.. خاوياً مثل فراغ، يتمسك بالدرابزين الخشبي في صعوده المنهوك. يتلكأ عند باب غرفة نومهم القديمة التي صارت مثل ذكرى قديمة. يمد ذراعه البائدة. يدور أكرة الباب. فتنفسح تحت ناظريه عارية تماماً، مطلية بالنور الأحمر الخافت دانية نائية تحتل كون الفراش القديم قطعة ذكرى مرئية. يغلق الباب على كونها المتجمر قاصداً غرفة الطفلين.

1/3/ 1999 - الدانمارك

* سورية حسين: مغنية عراقية غجرية قديمة

جنية الأحلام

إلى صديقي الشاعر علي الشباني

يتلفت هلعاً إلى امتداد أعوامه الأربعين، محاصراً بين قلب شبّ هواه وصرامة ناموس ابتدأ بالتفكك. يتلفت مقترباً من مدخل المحطة. ينظر إلى ساعته، ثمة فسحة من الوقت. وبغتة تنبثق من رحم الزحام، مغسولة بالعيون، تدنو مرحبة، فاتحة الذارعين، مندفعة بهبوب جسدها الصغير لتحتوي جسده المتعب الحزين، وتشرئب قاطفة قبلتين من شحوب الوجنتين.

يشتعل القلب بالهوى.

يشتعل الضعيف إزاء الهبوب.

قلت له: ـ الدرب معبد بالبهجات الصغيرة.. لكنه يا صديقي محفوف بالمخاطر!.

فقال: ـ ما ذنب الروح التي تكاد تستحيل خشباً.

قلت: ـ مغامرة أولها فرح.. وآخرها ندامة!.

فقال: ـ رجفة قلب.. يستنشق هبوب العطر الخفي لأنفاس أنثى برية.. يمد في العمر حولين.. ثم لماذا أفكر في الأواخر وأنا في الأوائل.

الجسد الناعم طيع بين ذراعيه، يعتنقه وسط الزحام، ينفخر من جديد في أتون عطرها الفريد عابراً خفقات العطر النسائي الخفيف ليذوب في ضوع اللحم، الأحشاء، الأعماق، التكوين، نبرة الصوت الرخيم، لفظ المفردة، بحر العينين الصفراوين الفاتحتين، العبق المنبثق من أصابع الكفين الصغيرين، وبشرة الوجنتين البارزتين، الجسد الناعم.. الناعم الصغير يستريح من شبوبه الخاطف ليحاذي أسفل كتفه. في أتون البهجة ذاك، في احتدام القلب الراعش، في باطن زحمة خانقة، ضاجة كان يسير وكأنه يطير. الأرصفة، وجوه البشر، الأبنية، المنعطفات، المحطات، الباصات، لون السماء في النصف بعد الواحدة ظهر نهار شتوي بارد، الخلق... كل الخلق والموجودات حجبها سطوع بهجة قلبه الوسنان. بهجة استقلت بزمنها المطلق، تقول ما تقول، تشطب ما تشاء وتحي من تشاء. حلاوة حلم كامن في

مجاهيل النفس يعود لأربع سنين خلت عندما وقعت بناظره المشدوه في بيت بعيد، ليس خيالاً.. ولا أمنية.. إنها تخطو الآن جنب جسده الحالم الخدران، ولا تكف عن الكلام بنبرة تطرب، وتميع كل جمد متبق من صقيع وحشة العزلة.

قلت له: ـ والعائلة يا فلان؟!.

قال: ـ وقلبي الفائر في ذلك الدوران بين الغرف والحمام، المرآة والرقاص، موقف الباصات، المحطات، الرأف فوق الحقول المتراميات، قلبي الملهوف.

في الأيام التالية حاول أن يعثر على الكازينو دون جدوى، فاضطر للعودة إلى نقطة الانطلاق، وتتبع مسارهما بولوج مدخل الزقاق المفضي إليها، لكنه يضيع في كل مرة داخلاً كازينوهات ليس لها ملامح المكان.. أيكون ما حدث مجرد حلم أو خيال؟. حاول أن يستعيد تفاصيل المسافة بين المحطة والكازينو، البشر المزدحمين، أشكال الأبنية، طعم الهواء، الروائح، الوجوه، الأصوات. حاول.. لكن انطفاء ما حوله يحدث بعد خطواتهما الأولى بقليل، تسبح الموجودات في الضباب، ويتألق حضورها الفيزيقي الطاغي، المبهر المشع، يضيء مساحاته في سورة مجنونة ماتعة خطفتهُ من كل تفاصيل عمره، وجه الزوجة المتصخر، الدائم التأفف، الملازم صمتاً قبرياً لا ينقطع إلا بصراخ شاكٍ متذمرٍ ينصب على أطفالهما الأربعة المحدقين نحوه بعيون محزونة مستنجدة من طوفان الصراخ المباغت الغامض العلة. يتذكر تفاصيل ما قبل اللقاء.. عجلات القطار تنهب الحقول المكسوة بالثلج بيسر وتبعده مسافة كافية

عن أحزانه لتلج به من ضيق الزمن إلى مطلقه البهي، ليونة عجنت روحه المتعوبة الآفلة الجسد، ليونة الفتوة بشبوبها المتأجج، أمحتْ الأعمار والأزمنة وألقته في السورة المشعة القاتلة عاشقاً بريئاً مرتجفاً، تتناهبه الهواجس في المسافة بين الفجر ومنتصف الظهيرة.

هل هي قادمة؟!.

وحده السؤال يهبط بكيانه إلى فراغ الهلع والموات. ينطلق في الزحمة مشغولاً بخاطرها المربك.

قلت له: ـ فكر ألفاً قبل الإقدام.

ـ أي ألف يا هذا.. أي ... والتواجد جوارها ساعة هو المبغى.. والمأمول.

لم نامت وحدها دون كل النساء؟.. لم؟.. لا يدري.. أسرار العشق أسرار.. وشؤونها إبحار لا رسو فيه.

كل ما مر قبل أن يحتويه ضوؤها كان واضحاً. الترجل عن سلالم عربة القطار الحديدية الثلاثة، الرصيف الطويل المنتهي بسلالم إسمنتية صاعدة. انعطافه نحو باب المصعد المفتوح ودس جسده بين الشيوخ، تحديق لائب بالساعة اليدوية.. خمس دقائق تفصله عن الموعد، هروعه نحو البنك القريب عبر الشارع الضيق المزدحم بالسيارات والمارة، وعودته المشدوهة المرتبكة، المحتدمة بهواجس مقيمة، قديمة عن انتظارات غير مجدية، وانصلابات في الأمكنة، بأفياء الحيطان، في المحطات والحدائق، تحت ظلال الأشجار، في المطارات والدول، في

"الأوركادات" والجبال، في الصحاري.. في الساحات.. في ... في .. في .. أي مسافة عرضها ستة أمتار بين البنك ومدخل المحطة، مسافة العبور بين رصفين، مسافة أحيت تاريخاً من الخيبات والخسارات، وبينما هو في اللجة تلك.. وعيناه تلاحقان الوجوه والأشكال، انفصلت من رحم الزحام لتشب نحوه وتضيّع زمنه في سديمها المطلق المجنون. فمن لحظة احتوائها لطوله بين ذراعيها غاب في فضائها الساحر الرحيب، وأفقده ضوعها وضوؤها كتل الأشياء، ملامح الأمكنة، فضيع قدر المسافة، قسمات المارة، الطقس، معمار الأبنية.

على أي قارب من الحلاوة حمله ذاك الكيان الناعم السائر جواره؟.

كل شيء تضبب وانمحت حوافه في رابعة النهار، وجنبها يمس جنبه مساً خفيفاً، فينأى به المس إلى عوالم أخرى لا يفهمها إلا متبحر في المحبة، عارف بأسرار العشق، ذاق تباريح الأشجان. أي غبار لفه ببهجته وأنساه سكون أجمل جسد عاشره قرابة ربع قرن. موات الجسد الأليف المتدثر، والطامس في بحر الإسفنج وحلكة ليل حجرة النوم الميتة. الاستلقاءة الهامدة للطول الرشيق المجاور لتمدده المحترق، الساهر المتشهي لماضي الجسد الحي، المترسب في غفوة موت ليلي لا فكاك منه، وأصابعه الخاشية من الدنو، الأصابع العارفة بمناحي وينابيع الطول المسفوح جواره في الفراش، المسكون بالصمت والخفوت. الأصابع المسهدة، المرتعشة التي ياما سرحت بطلاوة سمرة البشرة الناعمة الزلقة التي كانت تبثق جمراً من المسام، أتون نار كان يذيقه ويأخذ أطراف أصابعه إلى مواضع احتدام

الشهوة مستدلاً بما يصدر عن موجه من أنات خافتات ورعشات. الأطراف التي كانت تستجلب للجسد الميت الغافي أعنف الآهات، وأعذب الصرخات عند بلوغ الذروات تستلقي عاجزة مستحيية في تسللها الوجل تحت ثوب نومها الملفوف بإحكام، تمسح بانزلاقها اليائس برودة الجسد الثلجي، تلح على مكامن النيران القديمة التي كانت تشب بمجرد المرور العابر، تترمد الأصابع وترتد خائبة من خمود التضاريس الرشيقة الباردة المنكمشة البشرة، فيتبعثر طوله الغاطس في غور الإسفنج، في رماد شهوته المتخافتة، في عتمة السرير تعود الأصابع منهكة حزينة. المشهد الليلي أفضى إلى أخيلة مرعبة، ففي آخر سفر للأصابع المترجية، المتأملة في الفضاء المحصور بين الثوب الشفاف واللحم، وبعد قطعها مسافة قدم أصابها الهلع فانسحبت متقززة وكأنها تلامس جثث زملائه الجنود القتلى في الملاجئ والعراء في ليل الجبهة الطويل، أجداث رجال العصابات في الجبل قبل مواراتهم في الحفر الضحلة، ظلت ترتعش وترتعش وتر... فانسل ليلتها من السرير ليعب كأساً من الخمرة، ويسرح في ظلمة الصالة مصغياً لأنغام (Schubert) الحالمة، يتماهى في ظلال أشجار حديقة المنزل المتشبحة بانسكاب أضواء أعمدة الشارع الخافتة والمرئية من النافذة الزجاجية العريضة. يبحر في شؤون الأصابع مقارناً بين ملمس اللحم البشري البارد الداني، وملمس أنوثة الحجر الطافحة بأجساد نسوة المتحف الروماني العاريات العابقات بروائح الأزمنة المنقضية في سكون وصمت قاعات وأقبية وفسحات المتحف حينما أسفرت أصابعه في خلوة سانحة ممسدة صلابة

الأنوثة الأبدية للنهود المنتصبة والخصور الضيقة والأرداف البارزة المليئة المكورة والمتسقة مع استدارات الأفخاذ الساحرة، والنظرات الحية الأبدية المنطلقة من عيون واسعات، حالمات، حنونات، ودودات. وجد الحجر النابض أكثر خيالاً وخصباً من خمود الجسد المفزع في قبر السرير المشترك الذي راح يتهرب منه منذ تلك الليلة لينام في غرفة الأطفال أو الصالة، وعندما يضطر إلى المجاورة يتحاشى أي تماسي محتمل في غيبوبة الغفوة بلمّ أطرافه وملاصقة جدار زنزانة الليل السقيم.

أي غبار بهيج ضيعه؟.

أي غبار كوني يلوذ خلف الأجرام الضائعة في يم كون الأنثى المفتوح؟.

أي غبار؟.

هل يعيش في فضاء وهم من أوهام مخيلته المشبوبة العنيفة؟.

هل يسير في دروب وهمية، لازمنية امحت الساعة والمسافة، المعنى وواقعية الوجود المادي بكل أبعاده المحددة ببشاعة وجود بشري معطى، صلب مثل حجر أصم دون خيال.

هل ضياعه في المسافة المحصورة بين المحطة والكازينو في شارع المشاة يخصه دونها؟.

ـ ألم تضع معي؟.

ومض السؤال بغتة وسط الزحام، فأطفأته طوفان البهجة الغامرة.. أسلم قياده الهش لليونة كائن مكث سنيناً في أثير خيالاته.. وها هو يطلع حياً من مدن الأحلام ويأخذ روحه

المعانقة العدو والصديق، القاتل والقتيل، روح مسيح خدران. أخذته بوقعها العسلي ومالت لتدخل في كازينو انحفرت في سديم خدره بأرضيتها الخشبية البيضاء وكراسيها البيضاء، وستائرها البيضاء وندلها اللابسين بدلات بيضاء فذكرته بالمستشفيات والسجون رغم أناقتها الظاهرة.

قال: ـ أنجلس هنا؟.

ورمته بعينيها الضاحكتين، وببداهة قلب صاف استدارت نحو الباب لتبحر ثانية في موج البشر الهلامي المتداخل، الضاج، أخذته مخموراً.

ـ عماذا كنا نحكي؟.

سأل نفسه مراراً ولم يعثر على شيء محدد رغم أنهما لم يكفا عن الكلام، الكلام كان ذريعة، كان أبسطه يستدعي البهجة فينغمران بالضحك الطفولي البريء، المندثر في أعماقه الحزينة منذ أزمنة لا يتذكرها. عماذا كانا يحكيان؟ يتبدد دوماً كلام المحبين من الذاكرة المخدرة باتقاد الحواس الفوارة، المختزنة للطعم، الرائحة، اللمسة، النظرة، أثر الكلام في الملامح والنبرة. متى كان للكلام معنى بين القلوب المنجذبة، النافذة من ثقب مطلقها الضيق إلى فساحة تحققه بمجاورة جسد المحبوب. الكلام ذريعة ليس إلا، الكلام صمت بحضرة المعشوق. الصمت كلام في روح العاشقين. الصمت ذاك ألذ صمت في الدنيا. صمت إبراهيم في سنة كونية مندثرة عندما كان رجل عصابات يجوب الجبال حالماً بعدالة أبدية... مستحيلة، فتوة الأحلام قبل الترمد، وأدخلته آلهة الحديد الطائرة المزمجرة في مطلق عالم الظلمات،

أولجته في غياب مكين، لينبثق من رحم الظلام، من فداحة الصمت إلى نسمة باردة وظلمة حية فيها أصوات، خرير نبع، تناد، في مكوثه الطويل بالعماء المؤقت، كان يتحسس الموجودات بالسمع واللمس، صوت إبراهيم، الزوجة الحادبة في عنفوانها القديم.

- ها... كيف حالك؟.

لم يسمع من المحبوب إبراهيم إلا هذا السؤال، الصديق القديم الجالس جواره ليل نهار، كان يتخيل في عماه، وجهه الخلاسي الصامت، المنتظر، الصابر، يسقيه الماء بصمت، يقوده كل يوم إلى غرفة الحمام الطينية، يدلك جسده المسلوخ بأصابع حانية تمر مثل النسمة بأنحاء جسده المبقع بفقاعات الخردل، الأصابع الكريمة الممتعة تقول ما لا يستطيعه الكلام، يصعد به إلى المغارة، يجلس جواره بصمت، وعندما يطلب ماءً كان إبراهيم يحضن رأسه ويقرب الكأس حتى يلامس شفتيه ويسقيه بصمت. ما ألذ صمت المحبوب... الصمت كلام.. الكلام صمت.. لا فرق، فالمجاورة في مطلق الانجذاب هي الغاية والمأمول، ما ألذ ثرثرة المحبوب..! لم يكفا عن المحاورة في ذروة الظهيرة واحتدام الزحام.. عماذا؟ لا يتذكر إلا كسراً من الأمكنة والوجوه، وأطرافاً لا معنى لها من الحديث، تقاطع طرق وأصابعها الرخصة تشير نحو كازينو تشغل ركن الشارع ما، تسطع الذاكرة لحظة الدلوف. الطابق الأرضي مكتظ. يتوجهان نحو السلالم الخشبية الهابطة من وسط السقف، والمحاطة بالطاولات المشغولة جوار الواجهات الزجاجية. تئز الأدراج الخشبية المعلقة أزيزاً مطرباً في ارتقائها المتأني... الخلوة..

الخلوة.. مبغى العشاق.. تشمل أرجاء الصالة الفسيحة بنظرة خاطفة، وتأخذه إلى أقصى الزاوية البعيدة، إلى طاولة بكرسيين تجاور الواجهة العريضة المطلة على نهر البشر المتموج.

ما قيمة هذه التفاصيل؟ ما معنى هذا السرد؟.

ماذا جرى في الوقت المحصور بين الربع قبل الثانية حتى الربع بعد الرابعة عصراً؟.

الطاولة الصغيرة تفصل بينهما، هي تظاهر الجدار، وهو يظاهر الرواد، وتحتها عبر الواجهة الزجاجية رؤوس البشر تخوض في قاع الشارع الضيق. وجد نفسه يغط في غبار سنة كونية مندثرة، حملته نبرة صوتها الساحر، يم عينيها الصفراوين الألقتين إلى أزمنة طفولته البعيدة، فرأى شموساً حارة، تفيأ بجدران بيوت طين، سبح بسواق تلفظ أنفاسها الأخيرة، تاه في حقول شاسعة تحيط بالمدينة، عبقته الروائح القديمة، ذاتها وهي تهب من أصابعها، ثيابها، رائحة زهر الرمان، رائحة الطين، رائحة الحناء، رائحة الجوري، رائحة نشارة الخشب بدكان أبيه النجار، رائحة المساجد، ماء الورد، البخور، رائحة القداح، رائحة البهارات في سوق المدينة المسقوف، رائحة الجت في الحقول، رائحة ثوب أمه، رائحة المسك والزعفران، الآس والهيل، يطوف ... يطوف... في فيضان العبق القديم الهاب من حناياها. يسرح به أريج العطور في استرخاءة كسلى بباحة جامع السوق وحلمه الغامض بأمكنة بعيدة، بنساء مجهولات يسكنّ غيب الأماني المؤددة، يحلم ويحلم في الظل الوثير بصبايا باهرات يتخلقن من خيالاته المفتوحة الغامضة وقتها.

هل هذي الجنية الجالسة إزاءه، المحدقة، القائلة كلاماً يشبه صمت إبراهيم إحداهن؟.

الجنية الراخمة بشعرها الكستنائي المنسرح على منحدر الكتفين الضيقين الرانية إلى صمته الشارد، والمنصتة لعطر الكلام، القاطعة سيله الناعم، الناهضة عند فراغ كأسه، الهارعة نحو البار، والعائدة بكأسين.

ـ قلتُ، ما أشرب لكن صبري... كأسه وحده.. عندي شغل.

اتكأت على مسند الكرسي، فتوهم كأس النبيذ الزجاجي بين بنانها الكامل خلاصة روحه وهي ترفعه نحو شفتيها المضرجتين بدمه المسفوح، ضاحكة في باطن ضجيج الكازينو فانعكس فيه كستناء شعرها الفاتح، وارتج بالضوء الساطع من نور وجهها وتلعة عنقها، كان يتأملها ويبتسم، ونور مبسمه اجتمع مع نور أصابعها الناعمة، ونور النبيذ الأصهب الرقراق، وضوء القسمات المنتشية، ونبض نحرها، ونور ثغرها المأمول، ونور رعشته المكبوتة. نور يضيء نور. نور يضاف إلى نور. وفي بهجة الحواس المجلية وجدا روحيهما في نور الجنان، الغائرة في رفة خواطر وأحلام الإنسان. عماذا كانا يتحدثان؟ .. لا يحضره إلى فسحات الصمت، وتحديقته الحانية على أناملها الملتفة حول دمه المسكوب في جوف الزجاج، المرتقي صمت اللحظة حتى ساحل الطريتين الغضتين، وحافة الكأس الأتلع تستكين بين الشفتين المتلمظتين بطعم دمه المهدور، المنحدر في الريق، يتذكر تتبعه المسار المتمهل البائن بتموج تلعة العنق الأبيض الشفاف، الراجف بدمه المندلق في سخونة الأحشاء.

قلت له: ـ حدثني عن اللقاء.

قال: ـ ماذا أقول؟ ومن أي سكر أصحو؟ سكر اللقاء، سكر نور الجنان المجتمع في وجه المحبوب، سكر عبق الطفولة سكر صبايا أخيلتي القديمة الناهضة في حضور المعشوق الجالس قبالتي السادر، الراشف، الحائر، سكر النبرة الناعمة، الجاهدة لإخفاء دفين المشاعر بالكلام.. والكلام لتحاشي بوح الصمت والعيون. من أي سكر أصحو؟ أي سكر؟ وتقول عماذا كنتما تتحدثان؟.

عماذا وهو لا يتذكر الآن إلا لحظات تعطل الكلام، وإبحاره البعيد في استكانة الأصابع الصغيرة، الرخيصة، المسفوحة على خشب الطاولة الضيقة، وكفه الضخمة تهبط مثل صقر لتضم الأنامل الناحلة الراجفة، لا يتذكر كيف أوجد سبباً معقولاً لمعانقة الروح المستيقظة بنحت الأصابع، من أي سكر يصحو؟ وظلال خدره انسرب إلى قسماتها ومفرداتها وعسل عينيها الناعستين اللتين سرحتا معه، فسواها طفلة وأخذها إلى ظل قديم أدمنه في ظهائر طفولته القائضة، ظل سدرة جوار بستان نخيل، توسدا التراب، تماسا في برودة الظلال، وأغفيا.. لما استيقظا كان الوقت قد انقضى، فأخذته تخوض به في الزحام إلى نقطة الانطلاق.. إلى محطة الافتراق. أخذته حالمة خدرانة، أصحاه خدر ملامحها وصوتها، أصحاه صحو سكران، صحو لذة، أبهجه خدرها ودعوتها:

ـ اتصل بي كلما سنحت لك فرصة.

قالتها نشوانة وهما يقتربان من بوابة المحطة القاصمة للذة

المجاورة بقساوة انطلاق سككها الحديدية المفارقة.

- أوصلك للقطار. وأعطيك بوسة.. لا تنس الاتصال.

- لا.. لا.. أوصلك أنا.. لدي وقت.

عند موقف الباص اشرأبت على أطراف أصابعها، اعتنقته لافة ذراعيها حول جسده الضخم، أربكته الضمة للحظة صاحياً من كل السكر قبل أن يحيط خدرها الغامر، ملامحها المضرجة، بشرة وجهها الغضة، السارحة الدانية، هبوبها الساحر، وللحظة.. وللحظة خاطفة، أبدية، لازمنية، صارا كتلة واحدة، ضمتها الرقيقة، وعنف ضمته المحترقة، عصر طراوة الجسد الطفلي بين ذراعيه، فانسلت من بين ذهوله نحو الباص الموشك على المغادرة، وغابت في زحمته.

استكن طويلاً في وقفته وكأن الدنيا غادرته قبل أن يستدير حال غياب الباص في انعطافة الشارع، ويقفز صارخاً:

- يا هو ووووووووووووووووووووووووو.

وسط الزحام، غير مكترث بعيون المارة المستنكرة صراخه المبهم المجنون.

كانون الثاني/ 1997 - الدانمارك

جورية الجيران

أطفأتُ النور. أحسسته يتلمس كتفي ويهبط إلى حضني. لففتُ ذاعي حوله، وأشياء غرفته الصغيرة تشبحت في الظلام، خزانة الملابس، السرير الخشبي العالي، الشباك المائل، وكأنـه في السقف بزجاجته الرائقة، الفاضحة ظلمة سماء لا نجوم ولا قمر فيها. ربت على خدي بأصابعه الغضة، وقال بصوت أسكره التعب والنعاس:

- بابا.. قصة وردة بنت الجيران.

ابتدأت بهزهزته. أحرك ساقي اليمنى المتعشقة مع أختها،

حيث يسترخي في أرجوحته الليلية، من غور سماء النافذة، من زوايا الغرفة، من الخشب، ودفء الجسد الطفلي، من صمت الليل البهيم هبت علي روائح قديمة، روائح ظلال جدران، روائح أماس، روائح بشر، روائح دار أهلي القديم بغرفته الوحيدة وحوشه الفسيح، روائح فريدة تميز المدن الواقعة على مشارف الصحراء. أخذني الهبوب وخدرني موقظاً الأمكنة من سباتها، فوجدتُ نفسي ألجُ دارنا القديم، وأسمع صوت أمي وكأنه قادم من أعماق بئر مهجورة، يطرق أطراف نومي جوار أخوتي التسعة المصفوفين على بساط طويل مفروش وسط الحوش قدام سرير والديّ الخشبي العتيق بأعمدته المعدنية الأربعة الطويلة:

ـ إنهض يمه.. إنهض.. أخوتك راح يفزون.

أجلس متربعاً وسط البساط، أفرك عيني المثقلتين بالنعاس، وقامة أمي المنحنية ملفوفة بالضباب والعتمة، أتلمس أثر جسدي على فراشي الدافئ.

ـ إنهض وليدي... توكل على الله.

ـ أي.. أي.. يوميه آني!!!.

أقولها بانزعاج، قبل النهوض والخوض في أحشاء السحر ورذاذ الفجر المتناثر في الأفق البعيد. أقطع المدخل المعتم. أفتح الباب الخشبي، وأنحدر بمجرى نسيم الشارع العريض مثل حالم، قاصداً الفرن الداوي في مدخله، ألتحم في الزحمة والصراخ والانتظار الذي يطول غالباً حتى طلوع الشمس، لأعود بالعشرين رغيفاً التي نشتريها بالنسيئة.

ذلك التغبيش اليومي كان مملاً، رتيباً، ثقيلاً، ولكن في سحر من تلك الأسحار الصيفية البعيدة، في اختلاط غبشة الضوء بنعاسي، في كسل خطوي المتعاجز من ذلك الواجب الثقيل، وفيما كنت منسرحاً بمجرى النسيم الخفيف، أنصتُ لترنيم الأدعية السجادية الهابطة من مكبرات الصوت المعلقة بسدرة جارنا (محمد) نائب الضابط الورع، وقبل أن أستدير متتبعاً دوي الفرن الأليف. رأيت جارتنا تظهر من جوف بابهم المفتوح.. صبية في عمري هي الوحيدة التي لا ترتدي العباءة في محلتنا، وتخطو صوب الفرن. لم يتسن لي رؤيتها عن قرب فقبل ثلاثة أيام فقط أقاموا في البيت قبالتنا. جرفتني الظلال وما يحكيه رفاقي الصبيان حول جمالها عن مساري. فبدلاً من التوجه صوب الفرن الكائن في جهتنا، قطعتُ الشارع باتجاهها، دنوتُ من عمود النور الذي لا بد أن تمر بجواره مما يتيح لي رؤيتها بوضوح، لكن ما أن تقلصت المسافة بيننا حتى خذلتني ساقاي، فتلكأتُ على حافة رشيش الضوء الناري المنسكب من المصباح المتدلي لحظة هبوطها على مجرى الضوء ملاحقة بنثار فضة الانبلاج الوشيك، في مزيج الأضواء ذاك، تأملتها مسحوراً، مرهوباً.

ـ أي يا ولدي، أطفر غبشة من الفراش على صوت جدتك الله يرحمها، أخاف تكون سبقتني للفرن، أهرول بظلمة المجاز، أفتح الباب، وأنتظر لما تطلع أمل أم العيون الخضر، لما أشوفها.. أتحرك إلى وسط الشارع، أصبحها بالخير، فتدير وجهها مستحية، فأقول: أنا جارك، فتلتفت إلي وتقول: شتريد؟ فأحتار يا صلوحي!!! فأنا أريد أن أتعرف عليها ونلعب سويا، ارتبكت،

لكن تذكرت فيلم شفته بالسينما عن شاب يهدي لصديقته وردة، فتفرح كثيراً، فقلت: سأهديك وردة. ابتسمت وابتعدت عني، وضاعت بين عباءات النسوان المزدحمات حول شباك الفرن، ما تدري كم فرحتْ من بسمتها وقلت في نفسي: لازم أخلقله وردة بكرى.

من رهبتي الماحقة حدقتها وهي في مجرى الضوء، مبهوراً بالقامة الرامحة، بالعينين الخضراوين الواسعتين الهدباوين الناعستين، بجرة الأنف المرتفعة بشموخ، بالوجنتين المشتعلتين بنور المصباح ونور البشرة ونور الفجر المنفلق، بتناغم القسمات المحاطة بظلال العتمة. لفحني عطرها فاختضضت لحظة مروقها جواري، أصبتُ بالخرس والذهول، وحدهما عيناي لاحقتا خطوها وتكوين جسدها من الخلف الضائق بالثوب المنزلي الخفيف المطبع بالورد، والمصطبغ بدفق الفجر. اندست بين أجساد النسوة، ضاعت وضيعت قلبي.. أي كلام يستطيعه صبي عاشق؟. من أين يأتيه؟ والمشاعر في بكارتها الحسية بعد؟. وفيما أنا أسير سادراً بين أحشاء الفجر وبقايا السحر، انبعثت من ظلال الألوان القاتمة تلك البنت الجميلة التي ارتمت متعلقة بعنق حبيبها الفارع ماسكة الوردة الحمراء التي أهداها لها، ليغيبا في قبلة طويلة، أشعرتني بالنشوة في ظلام صالة سينما الجمهورية، وسط صراخ الأولاد على إبراهيم الأعور الذي قطع اللقطة ولم يذهب بالأمر بعيداً. فكرتُ بالوردة وأنا أحشر جسدي بالحشد الملتم حول شباك الرجال المفصول عن شباك النسوة بباب الفرن الحديدي المسدود نائياً عن اللغط والصياح، متخيلاً كيف سأسلمها الوردة في غبشة الصباح.

طوال ذلك النهار وضعني الهاجس في حيرة، فمن أين أجلب لها وردة، ومدينتي لا محلات بيع ورد فيها، والحدائق العامة لا تصمد إزاء نهم الصبيان والكبار للورد، وبيوت الأثرياء محروسة بالكلاب والأسيجة العالية، لم يبق أمامي سوى السرقة، فكيف أرتب سرد القصة لصلاح؟ هل أخبره أن الديوانية وقتها لا يوجد فيها محل ورد؟ هل أخبره أن الناس فيها عندما يتزاورون أو يعيدون مريضاً في المستشفى لا يحملون له ورداً بل عصيراً وبسكويتاً وحلوى، هو المولود وسط الورود في (Roskilde) الدانماركية ومحلات وردها الذي نشتريه باقات وأصصاً، نزين به ناصيات النوافذ وزوايا الغرف، ونحمله كهدايا للأصدقاء.

أبرك في شحوب العتمة، أنصت لإيقاع الهزهزة، لانتظام أنفاسه الموحية باستغراقه في النوم. أكف عن السرد، فينبض صوته خافتاً من قاع النعاس:

ـ كمّل يا بابا.. كمل القصة.

ـ ذهبتُ إلى جدتك وقلت لها: اعطيني فلوس، قلت: أريد أشتري وردة! تبسمت وقالت: إنت مخبل، نشتري الخبز بالدين، وإنت تريد تشتري ورد. رح إلعب يا وليدي... رح. طلعت حزين من البيت، وبالمدينة دخلت دكان ورد، درت بين الجوري والرازقي والياسمين والقرنفل. تحسرت وجمدت مقابل وردة جورية حمراء فسمعت من ورائي: تفضل ابني شتطلب؟ التفتت شفت صاحب المحل فقلت: أريد جورية عمي فسألني: عندك فلوس؟ قلت: لا. فطردني. غادرت الدكان وأنا ممرود، مريت

على كل الحدائق ما عثرت على وردة وحدة. رجعت وقت العصر لشارعنا، انعزلت عن أصدقائي وجلست على التراب جوة آخر عمود ضوة مطفي بالشارع. اقترب مني عزيز صديقي. سألني، فأخبرته بالقصة، همس بأذني حتى ما يسمعون الصبيان: اسمع لما تغيب الشمس، روح لبستان الرمان، ورة حقول الحنطة، وقت الغروب، بعد ما يرجع الفلاح لبيته، به ورد جوري ألوان، اقطع واحدة وارجع بسرعة قبل الظلام حتى ما تقطع دربك الذئاب.

لمستُ حائط الطين الواطئ في اختلاط الغروب بغبشية المساء، لمسته واجف القلب، ورميتُ بصري في البستان، لا نأمة ولا حركة. عبرته منزلقاً على غضاضة الأعشاب، وبركتُ متطلعاً في السكون، في كثافة أشجار الرمان، في مسالك البستان المعتمة. أتوتر من خشخشة قريبة، رفة جنح طائر، حفيف أغصان، وأصداء ضجيج المدينة المتخافت أسمعه وكأنه قادم من عالم آخر. تماسكتُ، وانسللت بين قامات الأشجار المحيطة بألواح الورد. أتوقف كل خمس خطوات لأرهف السمع، مخلوساً مما يخبئه صمت وعتمة البستان، إلى أن وقعتُ على لوح الجوري الأحمر، فمددت يدي وأحطتُ بأصابعي سويق وردة، كدت ألويه، لكنني جفلت وأفلته مرتبكاً من خشخشة أتت من أكمة تقطع طريق عودتي. تجمدت مبحلقاً بالرجل الطالع من كثافتها، المتجه صوبي. حل الرعب مفاصلي، ووجدت من غير المجدي إطلاق ساقي الواهنتين إلى عمق البستان المجهول، وفي هذا الظلام. تجمعت حول نفسي متوتراً أقصى التوتر. ارتددت خطوتين إلى الخلف، فسمعته يناديني باسمي، ويعيد

النداء. ارتخيت قليلاً وتطلعت نحوه. كان ابن محلتنا عبد الحسين داخل الملقب بالناحل طالب آخر سنة ثانوي، الودود الطيب.

ـ بابا.. بابا.

أيقظني صوته السكران، وأعادني من عتمة غروب البستان، وروائح الجوري والطين ووجه عبد الحسين داخل الناحل ببسمته الشاحبة المحفورة رغم محق الأيام، أيقظ صمتي تحت سماء ليل اسكندنافيا الرصاصية الدانية، المرئية خلف زجاج النافذة المائلة. فحدبت على قسماته الناعسة المقاومة بعناء سطوة النوم، وكلماته الممطوطة المنهكة:

ـ كمل بابا.. كمل.

ـ أين وصلنا؟.

ـ بابا لما ردت تروح للبستان.

ـ لما رجعت الشمس لبيتها.. صار المغرب، فرحت وحدي للبستان، طفرت الحايط الناصي، ومشيت للوح الورد، ردت أقطع وحدة فسمعت الوردة تقول: لماذا تقطعني؟ ارتبكت وايدي رجفت والوردة كملت: أنا مثل البشر.. مثلك، فلماذا تريد قتلي؟ حزنت يا ولدي وما عرفت أجاوب، ثم فكرت أن أخبرها بالسبب فقلت: أريدك هدية لجارتنا الصبية أمل أم عيون الخضر، حتى تصير صديقتي. ضحكت الوردة وقالت: إذا من أجل الحب اخذني. قطعتها وانتبهت للدنيا فوجدتها ظلمة حندس فخفت من الذئاب اللي طلعت وقطعت الطريق.

في غمرة ظلام الغرفة الباهت شممتُ رائحة طين البستان

المسقي، وأنا أسمع انتظام أنفاس ولدي الساكن في حضـنـي المهتز. تخافت صوتي. أصبح همساً شديد الخفوت، ثم صمتاً أخذني إلى غروب البستان وعبد الحسين داخل الناحل، التلميذ النجيب، الواقف على بعد خطوات بدشداشته الزرقاء زرقـة سماوية، وبشرته السمراء الداكنة في ضوء أول المساء، وصوته المريب، السائل عما أفعل في البستان، فأخبرته بوجـل عـن رغبتي بقطف جورية واحدة، والرعشة التي ألمت بنبرته ترن في أنحاء نفسي مقطوعة بازدراد لعابه وسط السؤال، رغم أنني كنت ابن الاثنتي عشر لكنني حدستُ معنى الرعشة وارتباكه المفضوح، وتذكرت قصص محلتنا المهموسة في فيء الجدران، وفي ليل السهر تحت مصابيح الأعمدة العالية، عن أسرار الجسد وهول الحرمان، أمعنتُ في انكماشي، ولخصتُ حالي متراجعاً خطـوتين، مفزوعـاً مـن بريـق العيـنين الصـغيرتين غـير المستقرتين. أتتبع ساعده الهاوي بين الفينة والأخرى إلى وسطه الذي سرعان ما تدببتْ زرقته السماوية الشفافة بسيفه المسلول، المقاوم بعناد الكف الناحلـة، الحـائرة، الدامغـة قيامـه.. دون جدوى. أمعنتُ في الرجوع، فانطمست قدماي برخاوة طيـن اللوح، والناحل يقول:

ـ لا تخف.. لا تخف.

أتذكر صوته بوضوح رغم مرور واحد وثلاثين عاماً، أتذكره في ليونة فضة ليل الشمال، في الصمت وتعب الأحوال، مخضلاً بالرغبة الماحقة، ورعبي في صمت وعتمة البستان الطالعة من الزوايا، من كثافة الأكمات، من احتشاد أشجار الرمان المحيطة بوقفتنا بين ألواح الورد الجوري:

ـ لا.. ما خايف.

قلت بجزع مذعور متظاهراً بالشجاعة عله يرتدع قليـلاً، ريثما يتسنى لي إيجاد مخرج من ورطة الجوري.

ـ تعال.. تعال.. يا.. لا تخف.

وأشار نحو أكمة قريبة قائلاً:

ـ خلف تلك.. ستجد ورداً أجمل وأطيب رائحة من الجوري.

ـ ....

ـ لم تتراجع ألا تعرفني؟.

ـ ما بي شيء..لا..لا.. لا ما أريد من ذاك الجوري.. ما أريد.

وأسرعتُ بقطف أقرب جورية، استكانت براحتي المكورة وأصابعها المتشنجة، المنتفضة حول سويقها الغض المرتعش.

ـ لماذا.. تسكت يا بابا؟.

أنقذني هَمسهُ من وحشة البستان وهيكل الناحل، من قدمي المطينتين وموج الرعشة المتلاطمة بين ضلوعي، من رعبي المائج بعبق الجوري، ووضعني في تشتت حالي بين مخيلة القص وترتيب السرد، وإلحاح الذكرى. فسألته:

ـ بابا.. وين وصلنه؟.

ـ لما شفت الليل نازل وتذكرت الذئاب.

ـ شفت الليل أسود.. أسود مثل الفحمة، وسمعت الذئاب تعوي

عووووو عووووو. رجفت وختلت جوة شجرة الرمان وبكيت أنا والوردة بسكوت. وبعد قليل سمعنا بلبل يسأل: من يبكي؟ ويجاوب حاله. هذا يمكن عاشق بنت الجيران.. خليني أساعده. أنا ما اهتميت يا ولدي، فكيف يساعدني وهو صغير الحجم، لكن سمعت رفة جناحه بالظلمة، بعد قليل شفت فد شيء أسود ضخم يهبط من السماء، طلع نسر. زاد خوفي، لكن سمعته يقول: لو كنت سارق ورد فقط كنت ما ساعدتك، لكن إنت عاشق، تعال اصعد إنت والوردة، توسط ظهري.

أحسست بجسده ليناً في حضني، هامداً، فخافت صوتي... إلى أن سكت، فتعالت أنفاسه منتظمة. تهيأت لحمله إلى السرير. انتصب ما أن تزحزحت قائماً بجذعه الأعلى وهمس لصق قسماتي فلفحتني أنفاسه الحارة:

ـ صعدت إنت والوردة؟.

ـ طبعاً بابا... طبعاً.

همست مثل همسه فلان ملقياً جسده الراخي إلى حضني وذراعي المبسوطة وسادة وقال:

ـ وبعدين؟.

ـ طار بنا وشق الظلام. وحط بنا طرف شارعنا الخالي، فهرولت للبيت، ومثل ما توقعت كانت جدتك تنتظرني وراء الباب. دخلتني وشاورتني: يا مسخم، يا ملطم، وين كنت بهذا الليل؟ بكرى الحساب، كنت أعرف هذا الكلام، فهي تخشى جدك يفز ويسوي جوشة بالليل ويفضحنه بين الجيران.

ـ بابا.. أين ضميت الوردة؟.

قالها من لب النعاس، فأيقنت بلا مفر من إيصال السرد إلى ذروة ما.

ـ جنب المخدة بفراشي.. نمت وحلمت بأمل تعطيني بوسة لمن أسملها الوردة مثل البنية بالفيلم، فزيت قبل ما توعيني أمي، غسلت وجهي، وانتظرت وراء الباب لما طلعت بثوبها الحرير الفضي، انطلقت إليها وصبحتها بالخير ومديت إيدي بالجورية، أخذتها وشمتها وقال: الله، ومن يومها صارت صديقتي وما تلعب إلا معي، صرنا جسمين بروح وحدة.

أطلق زفيراً طويلاً وسقط في غفوته ساكناً مخدراً بامتزاج الأرواح بضفيرة الذروة التي ما بعدها كلام، وتركني وحيداً في وحشة البستان، والطين اللزج الماسك بقدمي، وكفي الراجفة، المحيطة بسويق الجورية المنتفضة بين أصابعي البائدة، وجارنا الناحل يتقدم نحوي بخطوه المفضوح. خلصتُ قدمي من الطين وأنا مخنوق بالرعب وخيال اللحظة القادمة، ذل معانيها الكاملة خلف الثياب، محاصراً بألواح الورد، بالليل، والجدران، بابن الجيران المقبل بصمت، الدامغ وسطه القائم بكفه المرتعش، والمزدرد ريقه الناشف. أتراجع بنسق يحافظ على قدر المسافة الفاصلة بيننا. أتضرع مع نفسي لخالق السماوات والأرض، مردداً أدعية سجادية أحفظها عن ظهر قلب.

من غمرة اللجة، من فيض رعبي وفداحة خيالي، من هول المصيبة القادمة، من دكنتها، من خرسي المذهول، أنقذني توقفه المباغت وهطول ذراعيه الملاحقتين شيئاً ما ينزلق تحت

دشداشته، وسقوط كتابه المدرسي الذي تبعثر وتقلب ثم استقر على اللوح المسقي. سكنتُ بدوري وعيناي تبحلقان بسرواله الداخلي العريض، مقطوع التكة يشربك أسفل ساقيه والقدمين. كان ينضح بغزارة حائراً بين لباسه المقطوع، وكتابه الساقط وقضيبه المنتصب. في تلك اللحظة اندفعت بقوة صوب سور البستان، بلغته منتشياً، والتفت. كان الناحل منهمكاً بشد تكة لباسه الأبيض الحائل. عبرت الحائط، وأطلقت ساقي للريح، ولم أسترح إلا عند عتبة دارنا.

في غبشة الفجر التالية، حملت وردتي نصف الذابلة، وكنت أجبن مما كنته في القصة التي سردتها لولدي. أفرزتني بابنا الخشبية لظلال طولها الخائض في رذاذ فضة الفجر، في رذاذ أحلامي. دنوت منها حتى حاذيتها في مجرى نور مصباح الشارع. أسرعت بارتباك وأسقطت جوريتي، معتقداً لحظتها بأنها عارفة بكل ما جرى لي من أجل الحصول عليها، فتخيلتها تحمل وردتي، تشمها، وترمقني بود وامتنان مثلما فعلت بائعة الباقلاء قبل سنوات في زقاق ضيق بمحلة الجديدة.

ولكن.... عندما انفردتُ عن زحمة الأجساد المتلاصقة حول الفرن، حاملاً العشرين رغيفاً، وفي نور الشمس القائمة من غفوتها، وجدتُ وردتي معفرة بالتراب.. مهجورة... حزينة في مجرى النور الميت حيث أسقطتها.

الدانمارك 2/11/ 1997.

أزقة الروح

غالباً ما يتركني في الدكان وحيداً، فأبقى طوال الصباح، أسير دكته العالية، أرقب بعيني ابن الثامنة الشارع العام، الذي يحفل بالقادمين من الريف، والمتصل بمداخل الأزقة الضيقة المؤدية إلى الجامع، فعلاوي الحنطـة المفضـية بـدورها إلى السوق المسقوف. الشارع يغلي، مزاد لبيع الحمير. قرويون يـترجلون مـن لوريـات خشـبية مصـطحبين نسـوة هـزيلات، صفراوات. رجـال ينعلـون حـوافر الخيـل، باعـة متجولـون،

حدادون. مقاه. عربات. أقفاص عصافير، وشمس صيف لاهبة.

أتلاشى في الضجة، مبحراً عن سجني بين أكداس الخشب، المتراصة إلى جوانب الدكان لاعناً اللحظة التي قادتني فيها، ورمتني إلى هذا الضجيج قائلة لخالي:

- مرمره ... دعه يعِ لزمانه!!.

لم أدرك ما جنيته من ذنب، سوى ارتباكي من سؤالها الصعب كلما عدت متأخراً للبيت.

- أين كنت؟.

أصاب بالبله، فأنطوي في صمتي خائفاً، إذ لم أكن مع أحد، ولم أتعود أعذاراً كاذبة، وإذا صدقتها الإجابة فسوف تكذبني.. فغالباً ما تأسرني أشياء غريبة، تنسيني نفسي والبيت والوقت.. يشغلني مصير طائر يحلق في السماء، أو نملة تلج ثقباً في الأرض، أو اهتزاز سعف نخلة. فأرحل مع الطائر إلى البعيد، وأدخل مع النملة إلى ثقب الأرض، ويخدرني اهتزاز السعف وأفياء البساتين.

- أين كنت؟ أجب!.

- .....

- ما بك أخرس!...

أخرس... أخرس.. تخرسني شبابيك البيوت، وما تزخر به من دفء وأسرار، فأخلد إزاءها ساعات، أتخيلها تجنبني كف أبي السكير، ونواح أمي على حظها العاثر، وزحمة غرفتنا الطينية الوحيدة، المكتظة بإحدى عشرة نفساً. أيأس في صمت

فأبدد قنوطي بالتيهان في برار شاسعة تحيط بالمدينة. ألاحق عصافير برية تدور حولي، أجول بين سواقي الحقول، أجمع أعشاب الريحان والخباز، وأسكن مسحوراً بزرقة السماء، إلى أن يوقظني الجوع وغياب الشمس، فأهرع فزعاً إلى المدينة. مرة أخرى.. أكون قد نسيت نفسي عن موعد العشاء، أو قضاء حاجة أرسلوني من أجلها. أتسلل خلسة إلى باحة الدار ميت الأطراف، لتستقبلني أمي بوجهها العاصف وسؤالها المريع:

ـ أين كنت؟.

المحنة اليومية نفسها، وإيغالي بصمتي الذي يزيد غضبها، ويجعلها تنقض علي بصفعات تصيرني أكثر عناداً، وأشد تعلقاً بأحلامي، فألوذ لصق جدار الطين، باكياً بخفوت من يشعر بأنه مظلوم والآخرين مذنبون بحقه.

* * *

حدث ذلك صدفة شأن الكثير من الأشياء، فأخذتني أحلام من نوع آخر.. أكثر حلاوة وجنوناً. أوحشني صمت الخشب. خنقتني نشارته، ووحدتي وسط ضجيج الشارع، فانسللتُ تائقاً لمعرفة ما يدور حولي في الأزقة القريبة. احتوتني رطوبتها وبيوتها القديمة المتعانقة الشرفات، وأفياؤها الباردة. توغلتُ متأملاً جدراناً شائخة، وأبواباً خشبية مقوسة، وسلالم حجرية تصعد إلى عتبات عالية وأخرى تنزل إلى باحات فسيحة. في ظلال تزهر بصبية حفاة يلعبون، تنفستُ بعمق هواء خالياً من رائحة الخشب، وفي قاع زقاق لا مخرج له، حدثت تلك الصدفة. رمتني صبية بيضاء فأسرتني. رمتني من بين أهداب سوداء

مقوسة إلى أعلى وأسفل قليلاً، بنظرة ناعسة من عينين بنيتين كأنهما تهمان بالبكاء. انجذبتُ نحوهما، قرفصتُ أمامهما مفتوناً مستكيناً، يفصل بيننا قدر باقلاء وحفنة صمت. ثغرها البالغ الصغر انفرج عن صف أسنان منضودة بدقة. انهمكتْ كفاها الناعمتان بكيل حبوب الباقلاء. تدلتْ خصلة بحلكة أدكن ليل، وتأرجحت حاجبة عينيها. ردتها بنفضة أفزعتني. مدتْ ذراعها العارية اللدنة، ووضعت الصحن المليء أمامي. تاهت عيناي، واختفت أصابعي في التراب، وهي تفتش عن صحن الباقلاء. شملتني بنظرة ماكرة، كانت تكبرني قليلاً. رأيت في التماعة عينيها الصافيتين بوضوح... بلل الأزقة، ولعب الصبيان، والجدران القديمة، والفيء وذهول وجهي.

- يا... يا.. ما بكَ؟.

انبعث من صوتها الهامس باضطراب، طيب غريب الرائحة، أشبع نفسي بخلاصة أعشاب برية. رافقني ذلك الطيب الذي يذويني عطره إلى هذه اللحظة. أكلتُ صحناً وثانياً وثالثاً حتى نَفَدَ ما لدي من نقود، ورابطت حولها، ألعب مع الصبية، وعيناي مشدوهتان بين اللعب وبلل سماوات عينيها الموشكتين على البكاء. نسيتُ الدكان وخالي والدنيا، ولم ينتزعني من استغراقي إلى صوت "الله أكبر" يؤذن لصلاة الظهر، فزلزل بي الأرض. تجمدتُ لحظة ملتصقاً بالجدار، قبل أن أنطلق راكضاً بجنون، وعيناها المتسائلتان تغيبان في خوفي.. ويا لتلك المسافة بين قاع أحلامي ودكان خالي، وما ينتابني فيها من أحاسيس فظيعة، لم أشعر بمثيل لها إلا حينما تولهتُ بقطف الورد من بستان روحي. بلغتُ الدكان لاهث الأنفاس، فطالعني خالي مكفهراً، وألقى

السؤال المخيف ذاته:

ـ أين كنت؟.

أيـ...ن .... أيـــــ..ن .. كـ.. نــــ.. تــــ.. أ... يــــ... أطفأت ضجيج الشارع في روحي، وجعلت رأسي يصفر بفراغ الصمت، الذي يسبق الصفعة العاصفة. لذتُ خلف خزانة خشبية. انتحبُ بخفوت، وأحلم بالاختباء خلف حوائط قديمة تستدير بقيعان سماوات بنية، وبين أصابعي وردة.

* * *

في الصبيحة التالية كانت وردة تعطر طيات جيبي. غادرني خالي مكفهراً، مكرراً تهديدات باقتلاع أذني إذا تركت الدكان. لم يكد يختفي في الضجيج حتى حوصرتُ بصمت الخشب الميت، وسكون الجدران، ونداءات الباعة، ووقع حوافر الخيل، ووجوه القرويات الشاحبة المترجلات، الصاعدات، من وإلى لوريات خشبية تذهب وتجيء. ضاقت أنفاسي، فانسللتُ إلى قعر زقاقي، ناوياً رؤيتها وإعطاءها وردة. "دقائق وأعود" قلت لنفسي، وأنا أقترب من أحشاء ذلك الجدار العتيق، وعندما انزلقتُ إلى قاعه المسحور، انزويتُ في أفياء عينيها الموشكتين على البكاء.

ـ يا... يا... ماذا بك؟.

قالتها بغنج صبية، أدركت معنى الصمت في عيني الحالمتين، المختلفتين، الضائعتين بين خشب الأبواب المتداعية، وأكراتها الحديدية الصدئة، وأقواس الشبابيك المتقابلة، الغارقة في قعرها البعيد. اقتربتُ وابتعدتُ، عزمتُ وترددتُ، وأصابعي تلتفُ حول

عنق الوردة النائمة في جيبي. تلكأتُ محتدماً بهواجسي. عزمتُ.. دنوت.. حتى كدت ألاصقها.. خدرني عطرها الخفي فاستخرجتُ بعناء كفي المنتفضة، ورميت الوردة إلى حضنها. أسرعتُ خافق القلب مبتعداً، التفتُ.. كانت تشم وردتي وعيناها تفيضان بدفق هادئ... أغرقني، فبقيت راقداً بالوداد المائج في نهر بشرتها البيضاء، ولم أصحو إلّا و"الله أكبر" تصب نيران جهنم على رأسي، لتحيل هناءاتي فحماً. هببتُ مرتعداً من انخساف العالم بي. جريتُ مذعوراً. استقبلني خالي على الرصيف ممسكاً عصا غليظة، أربد وأرعد زافراً حريق السؤال:

ـ أين كنت؟.

المحنة ذاتها، لعثمة وصمت، ثم أضلاعي المتورمة، وخلف الخشب أنشج، وتتراءى لي في غشاوة الدمع الرقيقة، ذات العينين البنيتين تشم وردتي، وترش فيض رذاذها الناعم على ثيابي.

لم أكف عن الانسلال الهادئ وفي جيبي وردة... وعودتي اللاهثة وفي روحي هول.

في آخر مرة قابل اضطرابي ولهاثي دون اكتراث. انتظرتُ ريثما أتم نشر قطعة الخشب، أسندها إلى الحائط. التفتَ إليّ. تأملني طويلاً، ثم أقفل الدكان، وقادني بصمت متوتر إلى أمي، رماني نحوها قائلاً بصوت أسفٍ:

ـ خذيه... إنه لا يصلح لشيء!.

واستدار بقامته الفارعة المشدودة ليغيب في أفق الشارع. رمتني طويلاً بعينين شارفتا على البكاء، وتحسرت بألم. كنتُ مغتبطاً لتحرري من القيد، وحزيناً لأجل عيني أمي.

***

بعد ثلاثين عاماً... ما زلت أنسلُ غفلة ممن حولي وفي جيبي وردة.

أيلول/ 1989
أوردكاه خوي زرعان
أورميه - إيران

اختطاف

أخذتني من أحشاء السوق المسقوف، من رائحة الأقمشة والزعفران، المسك والبخور، من مخاريط الضوء المنهمر من ثقوب السقف الصفيحي الصدئ المنخور، من برودة الظلال، من البلاط المبقع بدوائر الشمس، من الأغبرة المتراقصة وهي تعفرني أثناء مروري المتأني في طريقي إلى دكان أبي النجار، من الغمرة العميقة، من كسل الظلال.

أيقظني وجهها المضيء، وأنساني لعبة الأغبرة والروائح

والأضواء، فحملقتُ مبهوراً بنحت القسمات المتناغمة بالشعر الكستنائي المتحدر أمواجاً.. أمواجاً. كانت بصحبة أختها الكبيرة السمراء. صرنا وجهاً لوجه. انخمرتُ.. ووجدتني أستدير متتبعاً خطوها الغنج، مخدراً باللفتات الخاطفة، وبالعينين النجلاوين، الهدباوين، الخضراوين خضرة مشوبة بلون السماء.. أخذتني.. إلى أن ألقتني وحيداً، غريباً في ظلال تنحسر قليلاً... قليلاً. أظاهر آجر الجدار، غير آبه بعيون نسوة الزقاق الداخلات الخارجات من وإلى البيوت. أتشاغل عنهن بالتحديق بأشجار الحقول، بالأفق المترامي خلفها، بتموج التلال، بالنوافذ المسدودة، وبتراب الشارع، محتدماً أفور بين باب خشبي مغلق غيبها والسفرطاس الساخن المركون جواري. أحلم بشربة ماء فأقوم. أقرع أقرب باب. تسقيني صبية سمراء، رشيقة القد، شاحبة الخد، لعوبة النظرات، بطاسة ماء، فأحرز من دكنة عينيها السوداوين بريق الشهوة، ومن الجسد المراهق الضائق بالثوب الخلق ارتجافة النهدين الصارخين المختنقتين. أستدير عائداً إلى بقعة ترابي لأظاهر الجدار، مصلوباً في انتظاري المفتوح. أتذلل بعيني الساهرتين للخشب الصامت القاسي، لشكل الباب الحاوي خلفه قامتها اليافعة، أتوسل سكونه.. لعله يرحمني.. يأتي بها.. ماذا أفعل؟ ماذا أصنع؟ وصبيتي "أمل" الخضراء حطتني في باطن حيرة ملساء، فلا هي تصد، ولا هي بالوصال تجود. ترد تحيتي مرة، وتتجاهلها مرات في انتظاراتي اليومية بأغباش المدارس وأماسي اللعب، لم أفز منها إلا بتحديقة غريبة، تتملاني أول الأمر عميقاً في شرود، ثم تستعيد الخضرة الرقراقة صرامتها، والنظرة حياديتها الطاردة، فتضيع فرصة

مواصلة الكلام بعد التحية والسلام. ماذا أفعل يا روحي؟ ماذا أفعل إزاء الصد المحير وشبه الوصال.. غير التحول إلى كائن من ظلال، ألاحق مسراها الخفيف في الأزقة وأطراف الحقول، في الأغباش والهواجر والأماسي، أربو من انصلابي المكين في بئر الظلال طلوعها المتوقع كل لحظة.. طلوعها المستحيل من خلف صمت خشب باب خالتها العنيد.

تتراجع الظلال، فألمّ أطرافي، أتكور، أنحشر دافعاً ظهري بالآجر الهش... دون جدوى، فالشمس أضحت في رائعتها.. كأنها جمدت لا تبرح كبد السماء. أدوخ في بحثي عن أثر ظل اندمل بكنف الجدار، وتركني لرحمة صبيب الوهج الحارق، الساقط مثل حمم النيران. غادرتُ مكاني، وجعلت أخطو لائباً. أقطع الزقاق من مبتدئه إلى منتهاه... أدور.. أدور مثل مزهور، علَّ الحركة تخلصني من قساوة الشمس. أمر جوار الباب، أكاد أدفره، أكاد أصرخ باسمها كي تغادر وتنقذني من جنون الظهيرة، والبشر يقيلون في برودة ظلال الغرف والأروقة، أراهم من الأبواب نصف المواربة.. أتحسر. أرمق الجدار المقابل مستعجلاً انبثاق الفيء الحنون الذي سرعان ما لمحتُ بوادره تطلع من كنف الجدار. ظللتُ ألف حول الزقاق إلى أن سمك الفيء وتمدد، فتهالكتُ إلى باطنه الرحيم، لأخوض في محنة قلبي الباحث عن وهم ود مخبوء في متاهة خضرة العينين البخيلتين علي بنظرة تحسسني بالمشاركة ولو للحظات، أتوهم اللحظة التي سيزول فيها الذهول والاستغراب ثم حياد الخضرة الصلد لنستمر أبعد من السلام. أغورُ مقلباً شؤون قلبي. أتساءل عما يجعل قلبها الغافي الجافي يشب بنيران قلبي. أعدمتُ

السبل... كل السبل. الحكي الذي أقضي أياماً في تحضيره، والمخنوق بحيادية نظرتها الطاردة، وجد مخرجاً وفاض في سيل من الرسائل لا ينقطع. كنت أجد صعوبة في صوغ ما يعتمل بداخلي، فاشتريت كتاب الرسائل العصرية وجعلت أنتقي ما يناسب حالتي من العبارات، حكيت عن ولهي.. سهري.. أحلامي.. حبي الذي ليس له مثيل. شكوت منها إليها عن إعراضها عني، نضارة المشاعر الطفلية البريئة، رياح القلب في هبوبها الأول، وصفتُ لها ساعات الانتظار.. و.. حكيت.. حكيت بالكلمات.. حكيتُ.. في ورق ملون شفاف كنت لأجل شرائه أسرق من "حسينية" أخي الصغير وأضيفه إلى ما أوفره من مصروفي. تفننت في طرق إيصالها، بيد صبايا محلتنا، بإسقاطها جوار عتبة دارهم أثناء مروري أمام جلستها اليومية قدام البيت، بيد أختي الصغيرة سهاد، برميها في غبشة الصباح أمام خطوها المتوجه نحو المدرسة. كنت أراها تتلقف مظاريفي في لهفة، فأبحر متخيلاً أصابعها الغضة وهي تلامس آثار أصابعي، خفقة قلبها لتذللي المفضوح، إعجابها بعبارات الحب الفخمة المنتقاة بعناية من نماذج الرسائل العصرية، وأشعار الحب القديمة المستلة من ديوان أمرئ القيس، فأتوقع عقب كل رسالة تلتقطها شبوبها بنيران المحبة.. لكن هيهات.. ففي الصبيحة التالية تقابل تحيتي ببود وذهول ثم بحيادية النظرة الخضراء الطاردة، فأرجع خائباً من أسوارها العالية، المنيعة إلى وحدتي المترسبة في برودة الأفياء، وانتظاراتي المشبوحة في الأغباش والعصاري، في الظهائر والليالي، لأوقات ذهابها من وإلى فرن الخبز، بيوت الجيران، السوق، المدرسة،

العزاءات الحسنية في عاشوراء، الحمام العمومي. أعود لأسكن أخيلتي متمنياً أن يعاكسها صبي فأضربه، أو توشك أن تُدهس بعربة فأنقذها، أو تسقط في نهر المدينة فأنتشلها. أنسجُ في زمن انتظاري المفتوح ألف قصة وقصة. أبحر معها في موج الفيء العميق، في الهبوب الخفيف لنسائم العصر. أبحر في صمت الباب المسدود، سادراً عن ضجيج الزقاق المغادر موات الظهيرة، فرأيتها تطلع من أحشاء الخشب، وحيدة، تتجه نحوي بوقع خطاها المربك. تلفتُ حولي، فاندهشتُ من صمت الزقاق وقفره. مقبلة باسمة عبرت حدود الفيء:

- يا عيني... أبعدك تنتظرني.. يا عيني؟.

من جلستي المستسلمة تأملتُ قامتها الممشوقة، خصرها الناحل، رذاذ كلماتها المسكر، أربكني حنان عينيها المنسكب. كاد يبكيني، فأخفضت نظري واقعاً لأول مرة على نحت قدميها الصغيرتين الحميمتين الدانيتين العاريتين إلا من خطوط النعل البلاستيكي الخفيف، أول مرة أرى رهافة الأصابع الحبيبة عن هذا القرب، كدت أقع عليها بوجهي، ألثمها، أشبعها تقبيلاً، أمسحها ببشرة وجهي الخدران، بوجدي.

هل أنا في حلم يا إلهي أم أن جسد الحبيب الحي حقاً يخيم فوقي؟.

تهالكتْ جواري على التراب. أحاطتني بذراعيها، بأهداب عينيها الخضراوين الواسعتين، مسحتْ جبهتي المعروقة بطلاوة بشرة أناملها النحيفة. أصابني خرس وكأن ليس بالدنيا كلام، أين مني الحكايا الطوال التي كنتُ أتمرن على سردها وحيداً متهيئاً

للحظة كهذه، أنعشتني أنفاسها الهادئة اللافحة وهي تخبرني كل قصتها:

ـ أتدري يا مجنون أني أحفظ جوريتك الحمراء التي ألقيتها قبل سنتين في التراب، عندما كنا نغبش سوياً إلى فرن الخبز، جففتها بين صفحات كتابي.

لماذا إذن اعتقدتُ وقتها بضياع وردتي الجورية التي اضطررت إلى السطو على بستان "عبيد" الكائن بطرف المدينة في غروب موحش، كاد فيه أن يفقدني براءتي ألطف كائن أحسسته بطفولتي، ألطف جار "عبد الحسين داخل الناحل" طالب الخامس ثانوي النجيب الذي حصرني بين ألواح الجوري، والذي لم ينقذني منه إلا تشربك قدميه بلباسه المقطوع التكة. لماذا تخيلتها مهجورة على التراب حيث أسقطتها.

ـ أخاف.. أخاف يا روحي من كلام الناس.

حضنتني.. فأخذتها إلى صدري، والدنيا لا تسع فرحتي.. هذا حلم يقظتي ومنامي ينبض لصق صدري في قفر الزقاق المهجور.. آه.. آه.. ما أسعدني وأصابعنا تتلمس جائبة مناحي جسدينا تماماً مثلما حدث في الفيلم الأجنبي الذي رأيته البارحة في سينما الجمهورية الصيفي، أحنو بأطراف أصابعي على شحوب الوجنتين الناحلتين. كانت مخدرة، مسبلة الأجفان. تكاد تغفو، فأربت بهمس على الخدين إلى أن تباعد أهدابها الطويلة، فيسقط وجهي الخمران في بحر الخضرتين العميقتين الدانيتين الناطقتين بعلامات المحبة والامتنان.. ما أسعدني في حضني جنة ونار.. لحظتها تذكرت وجه معلم الدين بنظاراته الطبية

وبوجهه المتجهم وهو يكيل اللوم لأبينا آدم الذي فضل التفاحة.. حواء.. الفناء.. تذكرت وأمل الخضراء تبحر في دمي الساخن، صراخه ـ لولاه... لولاه.. لما كابدنا كل عذاب الدنيا. سألته:

ـ أذنبٌ إذا أكل آدم "ع" تفاحة. التفاح لذيذ يا أستاذ!!!.

فصرخ بي:

ـ اسكت. إنك يا حمار لا تفهم الآن، ما حواء المجرمة السامعة وسوسة إبليس، الغاوية المحرضة بمفاتن الجسد الفاني.. الخاوي.. أصمت يا حمار ولا تفكر بأسئلة الشيطان.

حلاوة التفاح في حضني.. حواء في حضني. ما أجملك يا جدي آدم.. ما ألذ المعصية إذن يا من جعلتني أحس.. كل هذي النعومة.. كل هذا الكيان المبهج.. الأخذ النفس إلى مناح لا تطولها إلا الأحلام.. طوبى لك..

ما ألذ هذي اللحظة.. وبغتة وجدتني أختض مثل محرور مذعوراً من فكرة انقضاء اللحظة.. وهميتها.. كونها قد تكون مجرد حلم.. أنا المكثف إلى مجرد حلم لا أنفع لشيء كما تردد أمي التي أتعبها شرودي، فدفعتني إلى خالي مهدي النجار الذي سرعان ما اكتشف عدم جديتي وسروحي وغيابي اليومي من دكانه حال مغادرته وتركي وحيداً.. والذي قادني من يدي بأصابعه الخشنة العطوفة المتوترة من شارع الكرفت إلى الحي العصري، ودفعني بحنان قائلاً لأمي: ـ لا ينفع.. لا ينفع.. إبنك سارح.. بماذا.. لا أدري؟. ارتججت ذعراً خوف أن كل الأمر مجرد حلم، لماذا أنذعر من الحلم، أنا المدمن دروب الأحلام لماذا؟. تهت.. أنا في حلم أم في منام؟.

أيقظني السؤال، فوجدتُ الفيء امتد واستطال، متسلقاً الحائط المقابل، يلاحق ذيول الشمس المائلة للاحمرار، المنحسرة عن بئر الزقاق، الصابغة حافات أسوار الأسطح الواطئة، وبدلاً من قدّ حبيبتي اللين وجدتني أحتضن صلابة معدن السفرطاس، معفراً بغبار النوم، مرتبكاً، مثولاً، مأخوذاً بالسؤال:

ـ ما هذا الزقاق الغريب؟ وأين أنا الآن؟.

تلفت حولي، وجدتني أستيقظ في احتدام عصاري الزقاق الفقير، في الضجيج، ساحة عراك، ساحة كرة قدم، ليس ثمة وجه أليف، ما هذا الزقاق الغريب؟ ما هذا؟.

ذكرني الحلم، جعلني أتلفت، فوقع بصري المشوش، الملهوف على باب خالتها المفتوح. لطمتُ جبهتي بكفي المبسوط وقفزت ماسكاً السفرطاس. هرولتُ مسافة مثل مجنون قبل أن يلجمني شحوب الغروب، فأبي يجلس الآن في فضة السماء وسط حوشنا الفسيح، ينادم كأس خمرته اليومي، ناسياً وجبة الظهيرة الباردة في السفرطاس الذي ضاع معي، فجعلتُ أجرر قدمي يائساً مخذولاً. سيستفزه مرآي ويذكره.. فماذا سأقول؟ أأخبرهم عن انخطافي من ظلال السوق؟ من يصدق؟ ماذا سأقول؟.

لمحتها ما أن بلغت مدخل شارعنا العريض، تلعب جوار عمود النور. اتكأتُ على حائط قديم.. يائساً.. مسكيناً.. فمتى عادت؟ وكيف مرت؟ لم أستطع أن أسأل. فإلى من أتوجه بالسؤال؟ ولم أسأل؟ تأملتها تمرح بين الصبايا، تبتسم للغروب، للمارة، للنسمة، لمقدمي المكروب غير عارفة بمحنتي، بالعاصفة المجلجلة الكامنة بانتظاري خلف بابنا المسدود.

16/2/1997 - الدانمارك.

جرح الحمامة

لكل منا قصته. رجال كبار السن تركوا دفء البيت ورائحة الزوجة وضجيج الأطفال. شباب لم يرتووا بعد من هذه المسافة الممتعة في عمر الإنسان. أزواج رحلوا باكراً عن زوجاتهم الفتيات اللواتي بقين يتحرقن بسعير الأشواق. أكراد، عرب، صابئة وتركمان هجروا المدن ومباهجها، والتجأوا إلى الجبال الوعرة حاملين بنادقهم وحالمين بعدالة أبدية.. مستحيلة.

ننتشر في خيم حول بيت من الأحجار قائم في أعلى الرابية.

بيت وحيد محاط بأشجار البلوط والتفاح، يجري إلى يساره نبع ماء يأخذ مجراه بالانحدار نحو الوادي. كان كل شيء هادئاً في ذلك المكان الحدودي النائي، وكنا نشعر بالغبطة، والبهجة والحرية رغم المشقة وقساوة الجبل، لكن في ذلك اليوم البعيد أحس كل واحد منا بشيء فقده.. كيف حدث لنا ذلك؟ الكل يسأل نفسه هذا السؤال المر، وكلنا يعرف جوابه، لكن لا أحد يريد تصديق ما جرى. الموضوع أعقد بكثير من الأجوبة كل الأجوبة، فعندما تتآلف مع كائن ما إلفة وديعة، تنام وتصحو وأنت موقن تمام اليقين بوجودها.. يعز عليك فقدها، مثلما الإنسان يألف يده ولا يشعر بوحشتها إلا عندما تصاب بعطب، كذلك الروح.. فإلفتها أعمق وسماؤها أرحب. وحين تفقد نجمتها المتفردة الباهرة الضياء، تجد نفسها في ليل مظلم بهيم. أحس كل منا بالوحشة ذئباً برياً يحاصره في عاصفة ثلجية وهو عاري اليدين، منهوك القوى.

أول يوم وصلتُ إلى هذي القاعدة، لم أتبين من أمر البيت شيئاً، ظننته يعود للمقاتلين، لكن القدماء أخبروني بأنه يعود لعائلة كردية إيرانية تمتلك كل المساحة التي نشغلها، الأشجار والحقول وقاعة الطين وزريبة الحيوانات. في اليوم التالي نزعتُ غبار السفر الطويل في أحلك حمام في الدنيا، وصعدتُ قبيل وجبة الظهيرة عكس مجرى الماء قاصداً رابية النبع القريبة من البيت. جلستُ على صخرة منحوتة ككرسي، أغرقني التذكر، فرحلتُ إلى عوالم مدينتي الجنوبية البعيدة، أسواقها وناسها، ليلها وصبحها، بردها حرها، مدارسها وصباياها الفاتنات المفتنات قلبي الهش الضعيف أمام السحر. وكطلقة

فجت رخاوة أحلامي بقامتها الرامحة الملفوفة لفاً ووجها الممتلئ بحمرة الرب، تشع تحت وهج الشمس قادمة من البيت، ميممة شطر النبع. زهرت خطاها القافزة في قلبي وعندما حاذتني رمتني بنظرة خاطفة بارقة، فتمايلتُ في جلستي مختلاً من وساعة عينيها الباسمتين. كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً بلون الجوري مفروشاً بالنرجس الأبيض. لوت شعرها الأسود الطويل ضفيرة تتدلى مقسمة ظهرها التام الانتصاب، وتتأرجح عند الكفل المدور البارز، تمسه بضربات خفيفة مع كل خطوة تخطوها. أصبحتُ أراها بوضوح وهي تنحني إلى حوض النبع لتملأ تنكة معدنية بالماء. مع كل غرفة تلسع روحي بزرقة عينيها الصافيتين اللتين تمران خطفاً بين ميلة وأخرى. تفحصتها. خصرٌ ناحل بالغ الضيق، وتكور بارز أسفل الظهر لا يخفيه الثوب الفضفاض. أنف صقيل منسجم مع امتلاء الوجنتين الرمانتين. شفتان مكتنزتان حمراوان تؤطران فمها الصغير. يا لها من مصيبة!!. كانت نظراتي مرتبكة تتقافز بين وجهها والتنكة التي تكاد تمتلئ. تمنيتُ أن تظل هكذا أحدقها وهي تغرف الماء والتنكة لا تمتلئ أبداً. استقامتْ بقامتها المشدودة، وابتعدتْ تتلوى بمشيتها تلوي الحية. منحتني لفتة غزالة غنجة عند حافة جدار البيت قبل أن تغيب خلفه. عدتُ إلى القاعة الطينية شاعراً بالنشوة والغبطة.

مع طول فترة مكوثي في القاعدة، فضحت الأيام فحوى الأشياء نافضة الغبار الذي يحاول كل منا التخفي تحته، ومظهرةً أهواء الأرواح الحبيسة، فانكشفتْ لباصرتي الأمور بسطوع. وكما لكل منا قصته، فلكل منا أحلامه أيضاً، الحائمة حول

محورها الشفاف المتمثل في المهرة العذبة المعذبة.

قال حبيب الأجرب:

- أريد أن أخطبها!.

ضحكنا منه وحاولنا تسفيه فكرته، فاحتد قائلاً:

- إنها تميل لي. بالأمس صبحتها بالخير فصبحتني برقة.

لم يبعث تأكيده سوى المزيد من الضحك المتوجس، وقد مس قلوبنا خيط خوف من أن يكون كلامه صحيحاً قلنا:

- ماذا جرى لعقلك؟ أأنت مجنون؟ أين نحن من الزواج؟.

في تلك اللحظة كانت المهرة مقبلة وهي تحمل سلة ملابس كي تغسلها بحوض النبع. صرعنا الصمت، وتعلقت أبصارنا بخطوها الناشط، وللتمويه على بعضنا، كل منا تشاغل وكأنه ينظر إلى الغابة الناهضة حتى القمة خلف النبع، بينما أبصارنا لم تبارح ذلك التكوين الهائل المارق الخارق هشاشة الأرواح والنائر بألوان الكون.

لاحظتُ كبار السن يخالسون النظر أثناء مرورها وعيونهم تغور بعوالم حالمة قديمة، ثم تبرق بالشهوة، فيديرون وجوههم نحو الأشجار والجبل محررين الحسرة تلو الحسرة.

يعمدون غالباً إلى المزاح معها، وفي قسماتهم المتعبة تومض نشوة طفولية سرعان ما تنطفئ غائرة بين ثنايا أخاديد البشرة المغضنة، حتى إنني وجدت في أحد المرات شيخاً طاعناً يمازحها بتقليد نبرة صوتها الناعمة، وهي تكاد تموع بالضحك المغناج، وتصر على إعادة جملتها التي تستثيره وتجعله يمعن

في تنعيم صوته الواهن الخربان، متحولاً إلى صبي.

وبتقادم الأيام ازدادت الأشياء عرياً، ومع بيانها التام أيقنت أن هذه الطيرة ترطب برذاذها الفواح جفاف أيامنا.

قال كريم: ـ لو أراها عارية. والله لما اشتقتُ مرة أخرى لرؤية عري أية امرأة.

كنت أغص بالضحك.

ـ تضحك ها... ألا ترى أي بياض رائع هو بياض بشرتها.

كانت تشغل لحظات فراغنا الكثيرة، وتلهينا لحين عن أشواقنا المبرحة إلى مدننا الجنوبية البعيدة الحارة الحارزة أحبتنا وأهلنا وزوجاتنا وأصدقائنا وأيامنا الماضيات.

قال حامد: ـ والله لو تقع بيدي لالتهمتها مثلما التهم آدم تفاحة الجنة.

وهي الباسمة دوماً لا تبخل على أحد بنظراتها الماكرة العذبة ناثرة مرحها بأرجاء المكان.

قلت في نفسي ـ الملعونة عادلة توزع عبقها المسكر بالتساوي، إذ لا بد أن يحظى الواحد منا باهتمام ما خلال النهار، نظرة، بسمة، ضحكة، غمزة، نفضة رأس، تقطيبة غنجة، انحناءة مقصودة، أو طرف حديث.

في صبيحة مشمسة كنت أسند ظهري إلى ساق شجرة مشمش عارية، فالخريف أصبح فتياً، أشحب الأوراق وذهب بخضرتها ثم هزها بريحه العاصفة فتساقطت مغطية الانحدارات والممرات وأسافل الأشجار. رأيتها تتسلق شجرة بلوط تميل عند

حافة الوادي، تغيبها الأغصان الكثيفة تارة وتكشفها الفرجات في أخرى. ومن بين نثار الوريقات المتهاويات والأفرع المرتعشة نوّر قمرها، وانسكب صوتها الرخيم على روحي المستعرة ماء زلالاً.

شيرينه سه وره دانه ى هه ناري

كيره جوانه كه ى ناكودة واري**

وهي تعبئ كيساً مشدوداً إلى وسطها بحزم الأوراق التي تنزعها من الغصون. ضيعني قمرها الباهر رغم ضوء الشمس. كنت أظن أنني الوحيد الذي يراها، لكن يبدو أننا كنا نراقبها كل من زاوية تمكنه من رؤيتها بوضوح. وعندما تنتقل في قلب الشجرة وتحول الأغصان دون رؤيتها، يغير الواحد منا مكانه متصنعاً شاغلاً وهمياً، حتى إن أحدهم دنا مني وكلمني حديثاً مشوشاً لا رابط له، وهو يسرق نظرات خاطفة إلى البلوطة الراقصة حيث يمكن مشاهدتها من موضعي بيسر، ثم رمقني بحسد راداً على تحديقتي الماكرة قبل أن يعود باحثاً عن مرصد جيد.

قال صباح: ـ اللعنة على روحي.. إنها سمكة طرية.

في أحد العصاري وغب العشاء دعونا للتجمع، وخطب فينا نفس الشيخ الذي ضبطته يقلد صوتها، قائلاً: ـ نرجو أن تراعوا الظروف الاجتماعية.. كوننا غرباء، لا تتجمعوا قرب البيت.

لم نأخذ بكلامه طبعاً، فالإلفة ساكنت أرواحنا المجروحة،

** أغنية شعبية كردية "حلوة شقراء كحبة الرمان بنت جميلة من الكرد"

صارت حمامة تعودنا عليها، ولا نملك صبراً على عدم رؤيتها يوماً، تحلق بسماواتنا المجدبة ناثرة في نفوسنا المحرمة عبق المرأة وسحرها.. ذلك التعود وتلك الإلفة والاستغراق الحالم كان عزيزاً علينا. كنا نخشى عليه أشد الخشية ونداريه ولا نصدق فقده.

مع خطوط فجر باهتة ليوم خريفي حزين غادرنا القاعدة ثلاثة رجال وبغلين قاصدين قرية بعيدة لشراء التبن. انحدرنا على مسالك جبلية ضيقة أفضت إلى أودية أخذتنا بدورها إلى روابي مشجرة بالبلوط العاري. لم نرجع إلا وعتمة أول المساء تتجمع تحت الأشجار، وفي الأودية مدكنة لون الغسق الكالح. أنزلنا حملتنا في زريبة الحيوانات. ما أثار استغرابي هو برودة استقبالنا، وقسمات الرجال القانطة، المعفرة برمادها. هبط الظلام على الرابية والبيت والقاعة وحزن الرجال. أوحشني الليل والسكون فالتجأت إلى فراشي في غرفة الطين الطويلة التي نستأجرها، أرمق بخشية الوجوه المستغرقة بألمها والكامدة في ضوء فانوس شحيح موضوع على رف في الجدار. شيء ما يدمي قلوبهم، أيقنتُ بذلك والقاعة فقدت ضجيجها المعتاد كل ليلة. شعرت بالاختناق والباب الموصدة على الليل المدلهم الحزين. لم أطق الجو المتلبد، فملت جانباً، وهمستُ بأذن كريم المستلقي جواري والغاط بدوامة سيجارته:

ـ ما الذي جرى؟.

حدجني بدهشة، ثم لمعت عيناه في شحوب الضوء الذابل وقال:

ـ ألا تدري؟.

لم أفه بشيء. هزرت رأسي مستفهماً. تجمرت عيناه وهو يردف:

ـ زفوها ظهراً إلى فلاح يسكن قرية نائية.

ـ من .. من هي.. من؟.

وقبل أن يفوه بكلمة حدست من، فأشرت له الكف عن ذكر التفاصيل ويد هائلة امتدت إلى سماء روحي وأطفأت نجمتي الوحيدة وتركتها سماء خاوية مهجورة. خنقني الألم. خنقتني القاعة والوجوه القاتمة.. خنقتني الأشجان والعبرات، فهرعتُ نحو الباب ناحل الخطو. فتحتها، وألقيت نفسي في الحلكة عاباً من الليل الخريفي هواءه البارد.. ملتاعاً.. محزوناً وطيف بسمة عذبة مصبرة سوف لا أراها بعد اليوم يذيقني شهد العذاب.

15/9/1982

قرية دولكان ـ الحدود الإيرانية ـ العراقية

نخلة في غرفة

في زمن التباريح... أنبثقُ من أغوار التراب.. أتشكلُ من طراوة طين الزقاق. أنهضُ من الحجر المفخور، وأخطو في خرس الضجيج المرئي وسط لعب الأطفال. أخطو مصحوباً بلصيق مبهم يشاركني موضع قدمي المتأنية الهابطة على البلاط المحفر المنخور. أتغور في الصمت المكين، في الظلال المنبثة من الأبواب، من سماء التشوف، من النوافذ، من الأفق المسدود الخافق برفيف الطيور. أخوض في السكون شاعراً باللصيق،

متسائلاً:

ـ أأصابني صمم يا إلهي؟ أم أنني لم أزل في مسافة ما قبل تخلق الأصوات؟.

أسير... وأسير إلى أن تلفحني أنفاسه، فتوقظني، أجدني بباطن الضجيج، بين جداري زقاق قديم، بآجره الأصفر المتآكل المرطوب، فارقتُ الجنب الساخن والتفتُ إليه.. هذا صديقي المغني النشوان، أيكون طالعاً معي من روح التراب، همستُ له:

ـ أخبروني أنك مت في الحرب يا هاشم!.

جاوبني بضحكته الفريدة، النبرة نفسها، وتر الصوت المبحوح، المرتبك قبيل الكلام، ظللتُ أجوب بموج ضحكته الرانة في صخب الزقاق. فارقته مبتعداً نحو الجدار. عانقتُ الآجر القديم، ورحتُ أمسح بأصابعي فتاته الهش، المتهاوي بوقع مكتوم. الرائحة نفسها.. عبق مرطوب، والامتداد ذاته. الباب ذاتها يا زمن التباريح.

ناديتُ:

ـ هاشم... يا هاشم أليست هذه دار عمتي أم صلاح؟.

ـ أنسيته حقاً؟.

أنا لست في أخيلتي، الحائط حائط، والتراب تراب، وهاشم شاخص أمامي وخلفه الباب، يتملاني بعينين ألقتين واثقتين من الحضور... وينتظر الجواب... فكل ما قيل إذن عن حرب وقتل حل بالعراق ليس سوى سراب تراءى حيناً وغاب.

في زمن التباريح وهاشم لفته يجاورني، وجدتُ نفسي ألج

الدار من بابه الخشبي المشقق المفتوح، وأرفع ستارة القماس المسدلة واثقاً من وجود صلاح الذي قيل إنه غاب في أقبية المعتقلات. التفتُ إلى هاشم قبل مواجهة جوف الدار. كان يرمقني بود قدام الدار. اطمأننت وجاوزت العتبة محرراً القماش المدعوك من قبضتي، فسقط مهتزاً خلفي لأباغت بحوش مكشوف يختلف عن الباحة الصغيرة القديمة المسقوفة بقبة من نوافذ زجاجية، هذا حوش منخفض فسيح، متباعد الغرف. أشعرتني بالوحشة وجوه رجال ونسوة وأطفال غريبة، يتحلقون حول سفرة طعام، ويتطلعون صوبي وكأنني فرد منهم، غير آبهين لاقتحامي المنزل دون طرق الباب. في وقفتي الحائرة بادرتني الوجوه بانفراجة ظليلة، فسدرتُ بالقسمات المطلية بالضوء الأغبش المنبث من زوايا الباحة، من الغرف من التراب، من السماء الكابية، من اختلاط زمن وجدي وأشواقي. الملامح المنحوتة السمراء ساكنة حميمة، أشعرتني وكأن مقدمي مألوف ومنتظر كالمعتاد.

- هل كنت أزور الحوش والظلال باستمرار... أم أنا في باطن الأخيلة الظنينة؟.

التفتُ أبغي هاشم، فصدتني الستارة المهتزة في صمت المجاز القصير. كدت أمد ساعدي وأزيح الستارة وأعود... كدتُ... وسقطتُ معطلاً في مجرى أنفاس حية اندفقت من باب وسط المجاز، ومثل مسحور استدرتُ بمواجهتها لأعب من الهبوب القادم من جوف الغرفة، وأتملى جسد الباب الأليف، بدرفتيه الضيقتين، وإطاره العلوي العالي المعلو بنافذة زجاجية مغبرة. شممتُ رائحة أحبة غياب، صلاح مهدي الصياح، أحمد

حسوني، كفاح عبد سوادي، كريم مهدي عبود، رائحة عبقة ساخنة... أيكونون كامنين خلف الباب؟ وما رأيته من فساحة الدار والوجوه الغريبة والغرف المتباعدة ليس غير وهم من أوهامي الكثار؟ بعثرتني الأنفاس القديمة الهاجمة من الباب نصف الموارب، ولمتني في غمرة صبيبها المسكر.

في الضوء الظليل المُتحلّب من أول المساء، في الضوء الفضي المعتم المُتحَلّب من آخر سحر معلول، في امتداد المجرى المفتوح خطوتُ نحو المنبع خطوتين. حاذيتُ العتبة، ودفعتُ براحتي الدرفة المنفرجة، كانت اليسرى محكمة الوصد بمغاليق معدنية أسفل وأعلى جسدها المقسم إلى ثلاثة قطع مستطيلة كلح طلاؤها الرصاصي، وتساقط من نتوءات الزخارف وخطوط التظليع. دفعتُ بأناة فأزت في الصمت وعصت، شددتُ الدفع فصخبت محتكة ببلاطات الأرضية المرطوب. تخافت صرير الباب وخلفتني في السكون، أنصتُ لصمت قلق احتشد بعد هنيهة بهسهسات متقطعات، وهمهمات مسموعة رغم شدة خفوتهن. أطبقتُ أجفاني، وتمسكتُ بعضادتي الباب حابساً لهاثي، فسمعتُ ذيول ضحكات مكتومة، أعقبها همس مدغوم، فتخيلتهم يختبئون خلف الباب، خلف الخزانة، خلف الأريكة الوثيرة، تحت سرير صلاح المركون في الزاوية كي يفزعونني بصرخة، بقفزة، بطق كيس ورقي منفوخ. أسكرني الخاطر، وهبطتُ من العتبة إلى الجوف المعتم. لبثتُ بمكاني أبحلق في أمواه الظلام ملاحقاً أخيلة تمور وتغور، تظهر وتذوب مخلفة حواشيها الموشاة برذاذ فضي يتوامض وينطفئ، واقفاً في غور الأنفاس والروائح، في العتمة الطافحة بالهمس.

أحاول حدس أمكنة الاختباء. أشد أعصابي لمواجهة المباغتة المتوقعة حتى استكنت الكتل المتراقصة قليلاً... قليلاً، فرأيتني محاطاً بأكداس أثاث قديم متروك، مكسر مبعثر، متراكم في الأنحاء والزوايا، أقف في فسحة ضيقة تستدير جوار العتبة. أمرر ناظري المهضوم على جدرانها، ونوافذها العالية المطلة على الزقاق، وركام الأثاث المغبر، الأريكة مقطعة الأوصال، الخزانة مخلعة الأبواب مترنحة في الزاوية خاوية... بائسة. تسلقت عيناي الزاوية إلى السقف المقفع الجص. المروحة السقفية المعلقة بريشاتها الثلاث الميتة مطرزة ببراز الذباب الذي حولها إلى أذرع فحمية مغبرة. انصلبتُ مرفوع الرأس مبحراً في سماء السقف، والمروحة استيقظ مجدها القديم، فرأيتها تدور دورانها الحميم الدافق بأمواج الهواء المرطوب، المنعش في قيظ ظهاري أصياف الديوانية الحارقة. تلتفُ حول مركزها ناصعة البياض، وصوت اصطفاقها الرتيب دفعني إلى حافة الغفوة، حافة الصبا والمراهقة.. واحتدامي الصاخب المجنون الذي يجعلني أتهيج في انصاص الليالي، فأتسلل بعد هجوع أخوتي إلى سطح الدار لأهيم عابراً أسطح الجيران، متلصصاً على أجساد النسوة الغافيات في الغرف والباحات، مستغلاً الليالي المكتملة الأقمار، نصف القائضة، نصف الباردة. أجوب الأسطح إلى أن أقع على كنز في باحة، في غرفة لأشب بحريقي على وهج طلاوة الأفخاذ المكشوفة لبدر التمام وهو يغسل البشرات بمائه المسحور. في ليلة أغواني القمر الساقط بين فخذي جارتنا السمراء، زوجة نائب الضابط الذي لا يأتي سوى سبعة أيام في الشهر، يقضيها في الحانات مخموراً، تاركاً كل هذي الأنوثة

للصمت والخواء... للقمر وعيني. انحدرتُ في بئر السلم الداكن، اقتربتُ من العري المسفوح، فتململتْ وفتحت عينيها المرعوبتين مطلقة شهقة فزع أيقظتْ العجوز... فاشتعل الليل بالفضيحة. لم أجد ملاذاً إلا تحت هذا الاصطفاق المخدر في رطوبة هذي الغرفة. أقضي جل الوقت وحيداً، فالبيت خال إلا من عمتي الأرملة القاضية يومها بين مدرستها حيث تعمل معلمة وبيت أختها البعيد. أقرض قلقي بين الجدران خائفاً، أتسقط من مخبأي القريب ما يدور من أنباء حول رجال عشيرة قدموا من الأرياف ليحاصروا أبي النجار المسكين. رجال يعتمرون العقُل مهتزين من غواية الليلة القمرية وطلاوة اللحم الأنثوي المسحور، المبتل بشهوتي وسكوب الفضة اللينة الفاضحة. كنت أتأرجح بين خوف وشعور بالعار سرعان ما يتواريان لتحل محلهما لذة تصعد من الأعماق تحت اصطفاق الريشات الضاج في صمت الظهيرة وخواء الدار، فأغمض عيني رائياً المشهد القمري بوضوح.. الساقين المتقلبتين، المرفوعتين تارة والممدودتين، ظلال جدار الحوش الزاحفة مع ميلان البدر، لهاث خوفي المكتوم، وسعير رغبتي الحائمة، الصاعدة النازلة من أصابع القدمين العارية وامتداد الساقين حتى الشعر المبعثر المنثور على الوسادة البيضاء. أستثارُ وكأنني في باحة القمر المسحور متوسداً جوارها التراب، فأهتز وأصل على إيقاع المروحة إلى الذروة المبهجة.. لأهبط بعدها فوراً إلى قيعان الندامة والقرف من نفسي والناس والدنيا.

في زمن التباريح.. أتوسط الفسحة الضيقة بين أكداس الأثاث القديم، مشبوحاً أتلقى أخيلة الاصطفاق الضاج، أمواه المروحة

المستعيدة مجدها القديم، فيخدرني في القيلولة.. أتأرجحُ على حافة الغفوة في حجرة الأيام. وحده حنان الحجر والخشب ودوران السعفات الثلاث، وأنفاس عمتي الخافتة، غير السائلة يعاشرني في وحدتي.. تعد طعامي في صمت وتناديني بحنان.. لم تسأل، بل أحسستها فرحة بحضوري الطارد شيئاً من وحشة ترملها الطويل.. فرحة يشي بها صمتها المتواطئ رغم قصة سطوي المندلعة في المدينة.

في وقفتي الهضيمة، أتوسل صمت الجدران الحارزة بطيات آجرها هدجة أرواحنا المفرفحة، ولهاث أنفاسنا في ذعر اللذة المحرمة، همسنا الحالم لحظات بوحنا في قعر الليالي، ضحكنا النشوان، واحتدام نقاشاتنا السياسية الصاخبة الدائرة حول الإنسان، وتحالف الشيوعيين مع البعثيين، وضجيج الشعارات المقرف، حيث كانوا أحبتي الغياب متحمسين، حالمين باقتراب يوم الحلم حيث لا طبقات لا عسف لا جوع، وكنت أنتبذ في رؤاي اليائسة المحبطة.. فنغرق بالصياح كل في واد، حماس أوائل العشرينات، كنا في منتصف السبعينات، ولا تلغي ذلك الجدل المسدود إلا فيروز القادمة كعادتها عند الحادية عشرة مساء كل أربعاء من إذاعة الكويت، فيقوم صلاح يطفئ المصباح، ويسترخي قبالتي مثل سكران على الأريكة المغبرة الآن الحائلة اللون المختنقة بكسر الخشب، بالكتب القديمة، بالقمصان البالية.

وحدك يا جدران الأشجان تعرفين ما بنفسي القائمة من التراب، المتشكلة من طينه.

وحدكِ... تذكرين كفي الخائفة المطبقة على حواف جرح نوافذك الثلاث المطلة على الزقاق، رجفة أصابعي، ارتعادي من ضجة قرب الباب، من صرخة مستنجدة تذكرني بصرخات الجنود الجرحى في ليل هور الحويزة.. صرخات موحشة، بالغة اليأس، تغور في ظلمة القصب، في غور الروح المذعورة وزناخة الهور الطافح بأشلاء الجنود الإيرانيين والعراقيين، ارتعادي المجنون ذاك المستعاد، لحظة قرع ملحاح.. ارتعاد يخض جسدي رافقني منذ عودتي من إجازتي الأخيرة.. أشلاء روح قلتُ لها:

- سوف لا ألتحق بالجبهة أبداً، بكل الأحوال ثمة موت.. والموت.. موت يا ناهدة.

وقتها لم أخبر بعد أهوال التخفي وصيرورة النفس فيه.

- لا يهمني من الدنيا يا نور عيني سوى وجودك، حيث أستطيع لمسك بأصابعي.

كانت تخنق عبراتها وهي تردف:

- لا تذهب .. يا ربي لماذا لا تفتح قلبي لأضمه فيه؟.

قالتها وبكت.. قالتها واحتوتني بذراعيها.

من يومها ضاع كل شيء، لا الأيام أيام، ولا للوجود معنى إلا في حالة شديدة البدائية، الرغبة في البقاء، مشاعر لا تختلف عن مشاعر غزالة شاردة في البرية هاجسة كل لحظة بمفترس ما، أسد، ضبع، فهد.

محاصر بوجوه الأحبة المتضايقة من مكوثي اللامجدي في

عتامة الغرف، في الصمت، في سبوت يشبه سبوت الضفادع، لكن وسط البشر، ظللتُ أتنقل خجلاً من كينونتي، حتى عمتي الناضجة وداً والتي كانت فرحة بوجودي رغم فضيحتي وقتها باتت الآن تخالسني النظرات المريبة وقت تواجدها النادر في البيت. صرت أكثر من يتيم، وحيداً مع الجدران القديمة، وحيداً أختض من قرع ملح، من طلقة تلعلع في الأسحار، ورعبي المقيم غار في روح آجرك وأنتَ تضمني من العيون، من الشرطة العسكرية، من رجال الأمن، من موت أكيد يجوب الشوارع والطرقات الضيقة، المدن والأرياف، سهوب الجبهة وجبالها. لم أجد إلاكَ ملاذاً يأويني. كنت أنصلب لصق آجرك في الأفجار والأظهار، في المساءات والعصاري أطولُ بناظري المحصور المكسور المارة من خلف زجاج نوافذك ومشبك سيمها المغبر الذي يغبش الأشكال ويدغم ملامحها، فيتعسر علي تشخيص وجه يبعد أكثر من بضعة أمتار. أحدقُ في الصبايا والنسوة، في وجوه أصدقاء أعزهم، في لعب الأطفال ومرحهم، وقتها كان لا أحد يعلم بمخبأي سوى وصفي ابن عمتي. ومرة.. أتذكرين كيف تبعثرت أصابعي اللينة المعروقة النازفة روحي من مسامها، على صلادة جسدك المشبوح لحظة مرور زوجتي التي كانت تحمل صغيري الوحيد كفاح، كيف التحمتُ بكِ عقب غيابهما عن نطاق الرؤية، كيف مرغتُ كل جسدي المتصحر في جصك المفتت، دعكتُ صدري وظهري ذائباً بطيني وصوتها العذب المنادي صديقتها عند ثنية زقاق جانبي وقعه أليماً عند التخافت والغياب.. ما هذا الغياب؟ ما ذاك التلظي؟.. وكيف فقدتها بين رجال العصابات في الجبل. ضربتُ بكفي

المضمومة صخور الوادي حتى أدميتها، ورحتُ أمرغ جسدي الموحل الوسخ بسيقان البلوط، بعشب الأرض، بالتراب، بالصخور. ضيعتُ نفسي ثلاثة أيام في غابة بكر دون طعام، عويتُ مثل ذئب جريح، صرختُ حتى بح صوتي، كانت الجميلة زوجتي قد تعلقت برفيق، وعبرت الحدود معه إلى الشام.. ما هذا التلظي؟ وهل حقاً كل ما جرى.. جرى؟. هل حقاً أقف وسط ركام الأثاث المهجور؟ هل حقاً أقف في غرفة بدار عمتي القديم؟ هل أنا بين جدران صباي ومراهقتي.. نضجي وغيابي؟. أم أن مخيلتي المحمومة تعيشني في الحنايا والأمكنة، في الظلال القديمة والمنسية والمندثرة، والقائمة في النفوس والذاكرة والأحلام.. هل؟ ومات السؤال في صوت هاشم المنسل من النافذة، المتهدج ألماً:

أنا ناحل .. ناحل وأمشي مكابر

تراني

وأجلد .. خاف عدواني تراني

ليس ثمة مجال لأخيلة.. لوهم.. لحلم.. بل إنني في تباريح عودتي الملتبسة بعد غربة لا عد لأعوامها قضيتها في الدانمارك وحيداً، عارياً لا أحمل سوى ألمي وأشواقي.. كيف انقضتْ لا أدري؟. كيف عدتُ؟ لا أدري.. لا أتذكر التفاصيل.. ولا أدري ما سيكون.. وما سأصير إليه.. وما يحدث الآن.. كل ما أحسه أنني شهقت من التراب نخلة تسير، نخلة وجدت طريقها إلى غرفة العمر والأيام، نخلة في غرفة تدرك ما حولها من وجوه وظلال، جدران وأصوات. فكرت بالعائلة الطيبة الملتفة حول

سفرة الطعام الجاعلة من هذي الغرفة مخزناً لما تلف من أثاث، وشرعتُ باستحضار أشياء المكان.. الأرائك.. الأفرشة.. السرير.. أدراج المكتبة.. الأصوات.. الروائح.. الأنفاس.. روازين الحيطان بأبوابها الخشبية.. عبق البخور.. ضوع الهيل.. الرطوبة.. الكتب والقمصان.. أقف منتظراً انبثاق الغياب من التراب مثلما انبثقنا، مصلوباً في ضيق الفسحة جوار باب الغرفة.. باب الجنة. أنصت لهاشم يغني خلف النافذة.. أنصت مطبق الأجفان.

2/8/ 1997 - الدانمارك

أخيلة العيون

وجدتني، أخطو في دفقة ضوء الزقاق. ضوء لا يشي بزمنية ما. ضوء هو خليط من نور وظلام. امتزاج غير مسبوق. لا هو بالسحر ولا هو بغسق مساء. لا هو بشروق، ولا هو بغروب. في التباس الضوء والزمن أسير غارقاً بالظلال. لا أقصد سوى امتداد الزقاق. تحنو على قامتي جدرانه القديمة المتآكلة، بشبابيكها الخشبية المعتمة اللاهثة بأنفاس الصبايا. أخطو مخدراً بالخواطر والأماني. عيناي تسرحان في ظلام النوافذ..

أسرارها، وتبسمان لخاطر أنثى محتملة تحتويها الدكنة الرطبة الباردة، أنثى تختبئ خلف حواف ستائر البيبان المسدلة، خلف النوافذ المعتمة. أبتسم لعيون مخيلتي المتأججة، مأخوذاً، حالماً. أتخيل ما يحتشد بعيون الصبايا المتوارية من تباريح الرغائب الفائرة في القلوب الغضة الحبيسة. أرمقُ ظلال ستائر تهتز، تتموج. تربكني، تلكئ ناظري.

يقول:

ـ لا بدَّ أنها تكمن بعينيها القادحتين!!.

أخطو منتشياً بأخيلة العيون، مكاتفاً خيال صديقي هاشم لفته المغني وهو يقول:

ـ ما عليك سوى التحديق في عمق النوافذ والابتسام.

ـ لماذا يا هاشم؟.

يطلق ضحكته الآسرة ويقول:

ـ يا صديقي النثايا محبوسات في البيوت، خلف النوافذ، فلا بد أن تعلق واحدة بصنارة النظرة والبسمة!.

ـ المرأة ليست سمكة، وأنا لست صياد يا هاشم.

ـ دعنا من فلسفتك التي لا تسعفك في الليل عندما تضطرم نيران الشهوة، ولا تطفؤها العادة السرية بل تزيدها استعاراً.

وقتها كنت مشحوناً بالأفكار الداعية إلى احترام المرأة وتحررها المخلوطة بطهرانية البيئة المحافظة.

ـ لكن يا هاشم! المرأة ليست سلعـــ...

فيقاطعني بودٍ:

ـ لنعلق.. أو لتعلق! لا فرق! ماذا في ذلك يا صديقي.. ماذا؟

ـ ....

ـ ألا تحلم بشم رائحة بنية ناعمة تفور وترجف من اللمس؟.

يهفو قلبي للخاطر المنبعث من الكلام، وهاشم يردف:

ـ اسمع يا صديقي.. أن نلمس بشرة صبية بأصابعنا، ونبحر في العيون المتشهية، في الجسد الفائر المحروم.. ذاك يمد في عمرنا سنيناً.

ـ أتضحك..! إضحك.. إضحك.. الضحك جميل ووجهك يصير أحلى وأنور وثق بكلامي.. إنهن يكمننَّ خلف عتمات النوافذ الآن، حدق خطفاً، تأمل طويلاً، واشحذ خيالك بفوران الجسد والروح والعيون.. ستجد العديد منهن يتجرأن على البوح والوصال.

أخطو منتشياً بخاطر العيون، أشكالها، وساعتها، الوداد المائج في بحورها، الشبق المتأجج في أعماقها، أتقدم منطلقاً نحو امتداد الزقاق.. نحو الأفق الحاشد المفتوح بالشؤون والأنفاس بالمعاني والظلال.

ـ هل حقاً قُتِل هاشم؟.

أخبروني حال وصولي إلى المدينة قادماً من جبهة ـ حاج عمران ـ في أقصى الشمال بخبر موته في قاطع العمارة ودفنه قبل يومين. سلكتُ درباً مختصراً بين بساتين النخيل قاصداً بار المصايف. دخلته بملابسي العسكرية المغبرة، وحقيبتي الثقيلة

أسقطتها على عتبة الصالة المزدحمة بسكارى الظهيرة.. بجنود الجبهات المجازين.. ومن طرفها هرع نحوي بقامته الناحلة. اعتنقني، وانفجرنا بنحيب بلّ كتفينا. همستُ له:

ـ هل حقاً يا قاسم ما سمعت؟.

وابن لفته الكبير يمعن في دفن رأسه بعنقي، ويسكب دمعه الغزير، قلت:

ـ هيا.. هيا.

رمقني للحظة وقال:

ـ هيا.. نعم.. هيا بنا.

أخذني رغم سكره إلى تيه مقبرة النجف الشاسعة. عانقتُ الشاهدة وبكيت. ذكرته بكل حكايا الحب والصبايا ومد العمر معاتباً اختصار رحلته.

هل ما جرى حقاً جرى؟ أم كان مجرد خيال؟. هذا ما لا أدريه الآن، وأنا أخطو في احتشاد الظلال والألوان. أخطو وحيداً مضمخاً بأتراح غامضة المنشأ، غامضة غموض إناث هاشم لفتة المندمجات في عتمات النوافذ المسدلة، المحدقات في قامات فتيان الزقاق.. والمارة. أخطو مضمخاً بعذابي.. باشتباك الحلم بالمخيلة بالذاكرة، أخطو وفي نفسي استبهمت الأسباب والمعاني، وأصبح من السخف أن يشار لمنشأ حزن!.

وهل لمن جاوز الأربعين منشأ واضح للحزن؟.

أخوض في ضوء هو خليط من نور وظلام، في امتزاج غير مسبوق، في التباس الضوء والزمن، منفصلاً عن الصيرورة

الناجزة.. البدء ـ المنتهى، الولاد ـ الموت، متوحداً بأنفاس الحجر المتآكل، مزفوفاً بعيون الصبايا أبيض القلب، أخطو مثل طفل. أعانق هاشم القائم من التراب، الملاصق لخطوي في اللازمن، اللامعنى، واللاهدف. نتوغل في مطلق الظلال. يعصف بنا دفق الأشواق نحو جدران البيوت نتلمس.. آجرها المتآكل المرطوب.. ينوح هاشم وجداً بصوته الحنون:

«ليش الي سماره حلو ينحب

تظل الروح دوم عليك تنحب

علي بوية»

تسدرُ نفسي .. تسافر في عمق الحائط، التراب، خشب الأبواب، نوافذ الغياب، أرتحلُ متمايلاً مع تموج ستائر البيوت المسدلة، الساقطة من أسقف المداخل الحالكة إلى العتبات العاليات. أخرقُ بقوة خيالي قسوة القماش مطلاً على إلفة كائنات محبوسة خلفها. أتخدر بالهبوب الخفيف العابث بأجساد الستائر، واللاعب بليونة عباءات النسوة السود، المارقة في بحور الظلال. أتخدرُ ممسحاً فتات الآجر. أخطو.. أخطو متأنياً.. لأخبو قليلاً.. قليلاً.. أخبو.. أخبو.. يأفلني شروق صبية من عتمة دهليز مسقوف، بوجهها النائر من حلكة العباءة وأمواجها الصاخبة.. تأفلني.. أتحول فراشة وشفتاها الناريتان تنفرجان عن بسمة أبدية تحرق جنحي، فأسقط في فرح طاغ.. مأسوراً بالتي كانت متوارية خلف الجدران، في عتمات الغرف، ووراء النوافذ المحكمة الرتاج، مكبوحة مهددة. أحبو مرعوباً ألذ رعب في مسافاتها، والصبية تنفض خصلة سوداء شاكست عينيها

المكحولتين. اختضضتُ في حبوي على التراب، والخصلة تطير فاضحة ألق العينين المتوهجتين بالرغبة الطافحة التي أظهرتها تباريح الموانع، هواجس الحصار والخلوة، الكبت وفداحة انتظارات لا طائل منها، لم تنحرف أو تميل، منطلقة صوبي، مربكة خطوي.

ـ هاشم.. يا هاشم... ها أنذا أعلق.. أعلق الآن!.

والصبية المتوردة الوجنتين، بوجهها الغبشي، لاهثة بماء الفجر، بالشهوة تمعن في الاقتراب، تكاد تلفني في عباءتها التي تركتها تنفتح عن ثوب منزلي، يبرز نهديها الصغيرين، المستيقظين لتوهما. وقبل أن تنحرف عن جسدي المأخوذ همستْ بخفوت شديد، أولجني في حلم آخر:

ـ صباح الخير.

هل كنت وقتها في طريقي إلى مدرستي ـ إعدادية زراعة الديوانية ـ أم أن ما حدث، حدث في اللازمن، في خيالات وجدي؟. ما يحدث لي، أو ما حدث لي، ما تخيلته في زمن شرودي الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، أو ما يكون قد حلمت به نوماً ويقظة.. لا فرق فقد استوت في نفسي المقامات، مقام الحلم، مقام البصر، مقام الرؤيا. ما رسخ في حناياي... هو ما خلفه غيابها خلف باب مقابل لنفق ظهورها، فقد شبثْ بي تباريح عشق مطلق، عشق اللحظة الخاطفة، النادرة، التي لا مثيل لها ولا تكرار، ذلك التوق الغامض المنطلق بغتة من أماكن مجهولة في الروح، توق حارق للاندماج بالآخر، توق مستحيل، فانحفرت في روحي سمرة الوجنتين المضرجتين، والشعر

الفاحم الناعم المنسدل جوار النهدين، والخصلة المعاندة نفضة الرأس الآسرة، مسافة الغبش بين بابين متقابلين، والرغبة المخضلة بحر العينين، والهمس الملهوف.

في التوتر الخاطف.. في الخدر القائم.. أتلظى بأخيلتي الآن، هاشم، قاسم، صبية النافذة الجريئة، وصباح خيرها التي لا تنسى. أتلظى في زمن وجدي، في امتزاج أضواء غير مسبوق، في طريقي من ظلال سوق التجار المسقوف عبر شارع علاوي الحنطة المفتوح إلى دفقة ضوء زقاق من أزقة "الجديدة". في التباس الضوء أحبو، في التباس الأحوال.. من أخبرني أنها أزيلت.. من؟، وبُني محلها عمارات، وهل تُزَالُ الأمكنةُ من الذاكرة، من النفوس.. لكن هل كانت الأمكنة حقاً؟ هل حقاً ما أنا فيه الآن؟ هل حقاً أخطو هذي اللحظة على تراب الزقاق.. هل.. هل..؟. ورأيت هاشم يتحول إلى دخان ويتلاشى رويداً.. رويداً في الأنوار الغريبة، في امتداد الزقاق، نافذاً من زجاج نافذة الصالة العريضة، ذاهباً بكل شيء معه، الصبية، النوافذ، الحيطان القديمة، أخيلة العيون.

تظل الروح دوم عليك تنحب

علي يوبة

تظل تتردد في صمتي، في السكون المطبق المحيط، في وحدتي المكينة.

وجدتني أخطو على موكيت الصالة، لأتوقف جوار النافذة، أبحلق في الثلج المتساقط منذ بكرة الصباح. في أوراق الشجر الذابلة المتساقطة، ببقاياها المعلقة على الأغصان بعناء، ببياض

الثلج الناصع الذي بدأ بتغطية عشب الحديقة، بأدراج المكتبة المغبرة، بكأس الخمرة المترع القائم على الطاولة الخشبية السوداء. كم عببتُ من الكؤوس؟ لا أدري. فقد بكرتُ في الشرب هذا اليوم، يدوي برأسي صراخ "حسين عطشة" القصاب الذي كان جندياً في وحدتي العسكرية زمن الحرب حينما نسأله عن سبب صمته وشروده كل غروب حيث نكون بانتظار قصف الإزعاج الليلي:

ـ اليوم.. اليوم.. يا الله ذاكر أحباب قلبي

ذاكر أحباب

هل مات هو الآخر في الحرب؟ عدتُ إلى جلستي، إلى كأسي وأصغيت إلى هذه الألحان المنسكبة من مكان ما بخفوت وكأنها تأتي من بعيد. ما زال هناك "شتراوس" يدلق روحه من الـ "CD"، هل كنت في غور أمكنة السونيتا، ما هذا المكان؟ ما هذي الرخاوة القاتلة؟. من ألقى بي في هذا القفر الوثير.. في المطلق.. اللازمن.. اللامعنى.. العزلة.. من.. رفعتُ كأسي.. وأصغيتُ، فوجدتني أخطو على التراب.. أتحسس جسدي القائم، الممشوق، الناهض، المارق في بهجة ضوء الزقاق الرطيب، وروحي بعيونها الكثار مرتبكة تحدق بعتمات النوافذ المفتوحة، بستائر الأبواب المسدلة، في دفقة ضوء الزقاق، في امتزاج أنوار غير مسبوق، أخطو وحيداً... وحيداً.

1/5/ 1997 ـ الدانمارك

رؤيا الحفيد

انسل في ثوب السكون السائح على الأزقة الهامدة في العتمة بعدما خف الضجيج قائلاً:

ـ سأرجع..

وانسرح قاصداً الباب الموصد في نهاية المدخل الطويـل. تسلل بين خرائب بيوت المدينة العتيقة حتى بلغ بناية قديمة. ولج دهليزاً ضيقاً تتكثف في جوفه الحلكة فائحة بخليط من روائح

البخور وماء الورد يفضي إلى فناء مرقد فقير.

استكن مصغياً إلى بقايا وقع خطى أحذية ثقيلة يتلاشى صداها في السكون. الصمت مطبق على النوافذ المحطمة والجدران وأشلاء الطابوق المتناثرة على وحل الأزقة. انكمش لصق الجدار ووقع أقدام تخبط الأرض تبعتها صرخة مكتومة. خطف وميض برق، فأضاء الإسفلت المحفر جراء القصف المدفعي جالباً خلفه هزيم رعد متواصل رجّ الأرض الزلقة تحت قدميه، فتشبثت أصابعه بنتوءات الطابوق الصلب. سال السكون الأجوف مرة أخرى مانحاً مزق البيوت المشبوحة وحشة موغلة في قسوتها. لبث في جموده وجلاً، يشعر بإرهاق وعجز شديدين. حاول التماسك. شد أطرافه المهدودة قبل أن يخطو في عماء الدهليز، متلمساً براحة كفه المنتفضة آجره الرطب. ألقاه في فسحة مسورة بجدران بيوت خلفية من جهات ثلاث، أما الرابعة فمسدودة بسور طيني خفيض يتوسطه باب. قطع الفسحة الموحلة مستدلاً بذاكرته نحو الباب الخشبي المخلع. كاد أن يرتطم بعتبته البارزة. استوقفته هسهسة مخنوقة من خلفه. لامست قفا عنقه وعبرت، فلاحقها مشرئباً ليطل عبر السور إلى حيث توارت بأحشاء الفناء الذي انغمر بشلال برق انهمر للحظة من السماء المدلهمة.

... إنه نفس المكان.. يتذكره جيداً، فطالما احتواه ببارد ظلاله في سني طفولته المضطربة، حينما كان يلجأ هارباً من عصا أبيه في ظهائر الصيف القائضة، وحيداً، مهجوراً، بائساً. يفكر في محنة المساء، ويتأمل من جلسته المنعزلة بشرود أقدام الزوار الداخلين والخارجين، القائمين القاعدين مخدراً بلغط

أدعيتهم الخاشعة، المنسكبة من شفاه أيبستها شؤون الدنيا، والمندغمة بنعاس عينيه الذابلتين، بالورع المترقرق في غضون قسماتهم الصلبة وطقطقة مسابحهم السوداء المفرودة بأطراف أصابعهم الخشنة حبة.. حبة. يتأمل مبحراً في قوارب من غبار تنساب إلى أقاصي عوالمهم الغامضة. كان يعتقد وقتذاك أن إنصاته الخاشع إلى ترديد الأفواه اللاهجة بالبسملة والمتذاوية بذليل الأدعية سيستجلب البرد والهدوء إلى روح أبيه الملتهبة، فيغفر الذنب الذي اقترفه دون قصد في الصباح.. فيستقبله بذراعين حنونتين حينما يؤوب إلى الدار وقت الغروب..

تحسس عضادتي الباب المنزوعتين. مسح الخشب القديم بكفه، وتجمد على أصوات احتكاك حديد بنادق بأردية خشنة أعقبه صياح:

ـ امسكوه!.

خبطات أقدام تنهب الوحل. أنفاس تفح. جسد يرتطم بجدار. لهاث مذبوح انطفأ بصرخة استنجاد عارية يائسة:

ـ دخيلكم..لا..لا.. آ آ آ آ آ آ آه!!

غيبتها رفسات بساطيل عسكرية ثقيلة لا تخطؤها أذناه اللتان خبرتاها في شساعة قفار الجبهة الداخنة بلهيب حرائقها، ورعد انفجاراتها، وعويل جنودها، والتي لفظ صخبها وضجيج بشرها هامداً في عتمة إرسي عمته المهجور. أدكنتهُ حيطان مخبأه، ونهارات متشابهة يقضيها بين رعدة ورجفة من صوت محرك سيارة يبطئ قرب الباب، وقع أقدام تركض، وخواء ليل أجوف طويل يفرزه إلى ضيق الغبش منهكاً من أخيلته وكوابيسه

وأصواته المبهمة. تلاشت الأصوات مخلفة صداها يرن في رأسه. دفع الباب. أجفله الأزيز وجعله يرمي بصره المتوثب خلل الشق متفرساً بأرجاء الفناء. كان بلل الصمت ولمعة الظلام يطليان غرفة الضريح وغرفة السادن المنزوية في طرفها القصي. ولج الفناء الموحل، وانتحى جانباً جالساً القرفصاء، يلامس ظهره الناقع الحائط المتآكل. طفق يراقب بعينين متوثبتين همود الغرفتين المظلمتين. لاحق فص ضوء فانوس أنار غرفة السادن، وتابع من بابها المفتوح رجلاً قصير القامة، يهتز بين يديه فانوس ويلقي ظلاله على قسمات وجهه المضاءة أطرافها من الأسفل. لم يبذل جهداً إذ سرعان ما تعرف عليه رغم تشبح الأشكال بالضوء الشاحب، وخطوط الرذاذ المائلة، فذكره بنوائبه الماضية المتلاحقة، والتي ألفته في باحات رعب شريداً، مذلولاً. انكمش مرة أخرى على ضجة أقدام تجري، ولعلعة إطلاقات نارية، أعقبها صرخات مكتومة، حشرجات، لغط تناد، وذيل استغاثات تلاشت في السكون الذي حل لهنيهة، لينغمر بعدها بزخات رصاص متواصلة، مخلوطة بسباب بذيء، شالته وحطته في وحل عراء الجبهة الفسيح، الضائق بسدود النيران المنصبة من كل الجهات، وجثث الجنود المطحونة المتروكة لنهش الشظايا. كان يحفر بأم رأسه في طين الحفرة، المكبوسة بأجساد الجنود الموحلة المعروقة، مرتعداً بكثافة رعبه الأخرس القديم، الذي ساكنه منذ تلك الظهيرة اللاهبة، في العاشر من عاشوراء. أهلكه نحيب حشود النسوة النادبات المشفقة النازفة، والرؤوس الحليقة المضروبة بحد السيوف الناصلة، وأحشاء القتلى المهروسة المخلوطة بتراب

البرية. أحس بنفسه وحيداً تحت شمس الظهيرة الراكزة في قبة السماء، وحيداً بمواجهة صريخ الجند الضائعين في لجة الحشود المائجة، المسورة ساحة الوغى، وحيداً في الغبرة التي تثيرها الخيول الذاهبة، الغادية الرائحة، الدائسة على الأذرع المقطوعة، والرؤوس المجزوزة الأعناق. أبأسته أشلاء الجنود والأئمة المنثورة، السابحة بدمها الساخن، المسفوح على التراب، انصباب سعير جهنم المندلق من كرة السماء. ترمد في ذروة الظهيرة المختنقة بكتل الأدخنة المتطايرة، من تفحم ركام خيم السبايا المعولات، اللاطمات، الخامشات صدورهن العارية، ووجناتهن الشاحبة، حائراً ببهمة السؤال:

ـ لم يحدث كل هذا؟.

مسح جبهته المعروقة بكمه الناقع، وتطلع إلى قامة الرجل المتشبحة بارتعاش ضوء الفانوس الذليل، وأغشية الماء الهامي من بحر السماء، والذي انهمك بفرش سجادة وتسوية حوافها قبالة الباب المفتوح. تطلع بشرود مفكراً بتذاوي حلمه الموهوم، الذي كان يعتقد أن في إمساكه ستتفسر بهمة كينونته، لكن في زنزانة رطبة أروه الويل، وفي وحشة لياليها استكشف هشاشة روحه.

خاض الشيخ الناحل في ذرات غبار الضوء المتحدرة إلى أطراف الغرفة ببطء شديد. أدخل يده في تجويف مربع يتغور أسفل النافذة المغلقة، واستخرج كتاباً ملفوفاً بقماشة خضراء. عاد إلى ساحل سجادته وهبط بروية ليطفو متربعاً وسط حافتها البعيدة. تناول حاملاً خشبياً قصيراً من جواره المعتم، وضبطه

أمامه في نقطة يسقط عليها ضوء الفانوس. فل عقدة الرداء معرياً جسد الكتاب، قبل أن يضعه على سطح الحامل المائل نحوه قليلاً. بسمل بهمس مسموع، وراح يقلب صفحاته بأناة إلى أن استقر مسبلاً ذراعيه إلى الجانبين. استكثف. مسح قسماته، ثم شرع في التجويد. انتشر في هدأة الفناء الماطر ترنيم الكلمات الخافتة، المسجوعة، أنصت إلى صبيب المعاني المتغلغلة في ثنايا النفس الضائقة. اختنق شجناً وهو يطل على انغمار المقرئ في وجده. صعدت القشعريرة وراحت تجوب بأنحائه صعوداً هبوطاً، ثم توارت مخلفة خدراً عميقاً، خدر تلك الظهيرة ذاته، حينما توغل في تفاصيل المشهد المتجسد تحت دكة عزلته التي يطل منها على أوصال القتيل الممدد في البرية، والذي تظلل في غفلة من الجموع المولولة، النادبة، اللاطمة على الأفئدة والجباه المطينة، بمستطيل رخامي مغطى بإزار فاقع الخضرة، وقبة عالية مكسوة بكسر المرايا المتقابلة المتراصفة، الهابطة حتى تيجان الأعمدة، التي تسند كتلة القبة، والمدفونة بجدران الرخام السميك، المفتوحة بأربعة أبواب كبيرة عالية متقابلة مزججة الأجساد، مطعمة بالفيروز والعقيق. أرعشه رفيف أجنحة طيور بيض، تنتفض في قعر سائل البيبان العميق الزرقة. ضمخه طيب خفي يفوح من صفوف أزهار تحتشد في صفوف متداخلة، تغور في سماء الرخام والأحجار والمرايا، ومن أجساد الكلمات الملتوية، النافثة خلاصاتها على ملامح النسوة المحزونة، الخائبة، المجللة بسود العباءات، وقامات الرجال المعاندة، الخاوية، والتماع المصابيح المحاطة بكرستال المسارج الضخمة، المتدلية من نهايات سلاسل نحاسية، تنزلق من السقف

المزخرف، ومن مركز القبة. كانت روحه تنسكب مع نورها الساقط على الحواف الناتئة لحجرة الضريح، وهو يمسك براحة أمه الساخنة. كانا يدوران في سورة الكتلة اللحمية، المائجة حول سور الضريح. كانت تكابد للإمساك بمشبكات نوافذ السور المذهبة، فتدفعها موجات اللحم البشري الهائجة. تحاول المرة تلو المرة جاهدة، إلى أن تقبض كراتها المنضودة، فتنتحب خشوعاً، وتدعو متضرعة كي يحميه من مصائب الدنيا وعسرها، ويحفظه ولداً صالحاً يلم شيخوختها. لحظتها كان واثقاً من استجابة حضرة الإمام الراقد خلف النافذة، لتوسلاتها المتهدجة، وصبيب نحيبها الذي تكفكفه بطرف وشاحها الأبيض. كان يذوب برعشة صوتها، باهتزاز جسدها، بدفء راحتها، بتمتمة الأدعية المتداخلة.

* * *

تشبث بفجوات السياج، وأنهض جسده المبلول. خاض بوحل الفناء مقلصاً المسافة التي تفصله عن جوف الغرفة. أصبح بمقدوره تمييز أشيائها القائمة بأشباح ظلالها المرتسمة في مساحات الضوء المعلولة، والمغبرة بستائر الماء المسدلة. تقدم خطوة أخرى.. وأخرى. هاجمته الرائحة القديمة ذاتها، فسمرته في الوحل. الرائحة ذاتها حينما فز مذعوراً، مختنقاً في ذلك النهار البعيد. الأشياء المرتبة في تبعثرها تشغل نفس الأمكنة، المسابح السوداء الطويلة المتدلية من مسامير غليظة تثبت أركان رسوم أئمة صالحين، بلحاهم الشيباء الوقورة المنسرحة أسفل صدورهم، وقسماتهم الورعة الرانية من عيون سوداء واسعة

إلى المقرئ المهتز في أغبرة الضوء الكابي، والسادر مع آياته التي يرتلها بصوت شجي أصبح شديد الخفوت. الصندوق الخشبي المرصع بخرز ملون يسمك قرب الرتاج، وينتشر خطوطاً تنمحي في الحواف. الإبريق وفوهة عنقه المعتمة. طاسة الماء النحاسية المدورة. بقايا أصابع شمع قائمة، ساقطة على سطح صينية علاها الغبار. ثقوب الحصير الحائل المسلت الأطراف. فراش القطن الذي شهد عذابه. أيقظته من شروده ريشات المروحة السقفية، بظلالها الميتة، الملقاة على جص السقف الخفيض، فاستذكر اصطفاقها القديم الذي شظى كيانه، وبعثره أشلاء ضائعة في تراب ذلك النهار الحزين. شعر بالضآلة والعجز. لفه شجن المعاني المتدفقة من الشفاه المنشغلة بفك طلاسم الحروف المغزولة في اصطفافها الأبدي. اشتد المطر وأصبح لتساقط قطراته المتلاحقة على السقوف والجدران وبرك الفناء ضجة غيبت وقع بساطيل العسكر الجائبة في جوف الليل، بحثاً عن بقايا حيوانات مذعورة تنحشر مثله في شقوق الجدران المهدمة، الفجوات، السراديب، الحفر، الدهاليز والأركان المهجورة. تحسس مقبض السكين الملتصق بخاصرته حينما تسرب إلى سمعه خشخشة تصدر من الدهليز وتقترب مصحوبة بلهاث بشري، فذكرته برعب خشخشة أعواد القصب في حلكة ليل مستنقعات وأهوار الجبهة التي توقد فزع النفس الكامن، وتميت الأطراف شأنها شأن عصا أبيه والمعلم والضابط والسجان والدنيا والسموات.

ـ أي عمر هذا الذي عشته؟!!!.

همدت الضجة متلاشية في خرس سكون دوار ساد للحظات،

ثم هبت ريح عاصفة أطارت الصفائح المدلاة من بقايا السقوف، وأسقطتْ الجدران المترنحة، فتعالى صريخ بشر يدفنون تحت الأنقاض. استدار عكس مسار الريح. لف حول حائط الغرفة محتمياً بتطليعة السقف المهتز. وقف لصق النافذة، وتطلع عبر زجاجها المضبب. الغرفة غائمة، وظلال المقرئ تتموج طافية في حركة هلامية وكأنها تنفث أدخنة تتكثف حول حواف رسوم الجدران والروازين وريشات المروحة. استطال الترنيم وتنغم، فجرفه إلى مسافات الخدر العابقة بأبخرة تعرق آباط النسوة، اللواتي يرفعن صواني نحاسية مدورة رتبت على أسطحها أصابع الشمع الضاوية، فوق رؤوس الحشود المرصوفة، ويبثثن من الجنة الكامنة تحت العباءات فوح الأنوثة والأمومة. أسكره عبق أنفاسهن الممزوج بعطور الصندل والآس وماء الورد والحناء. فانزلق على بلاط ممر ناعم، شديد الانحدار، وهوم بانزوائه في ركن رواق مدرسة التهذيب الابتدائية الظليلة، مجهداً من سهر ليلة العاشر حتى تباشير الصبيحة الدامية. تعفر بغبار البلاط غائباً عن احتدامات وقعة النهار الضاج بالعويل والحرائق والذبح. ترسب في قعر الغفوة.. فأبصر القتيل ينام جنبه على البلاط وقد برئت جروحه، واستنار وجهه الحافل في غفوته بغموض الجلالة. ورغم عمق نومته، أحس بذراعين تحملانه من أسفل كتفيه ووسط ساقيه. للذراعين حنو ذراعي أبيه، ورائحة جسده العابقة برائحة نشارة الخشب. جهد لمباعدة أجفانه كي يرى الوجه الصارم في لحظة حنان فريدة. حرك أجفانه الخدرة، فرشقته هبة أخرى من ضوع الخشب. استسلم ذائباً بعطر الإبط الساخن ليفز مرعوباً أشد الرعب. كان منبطحاً

على فراش من القطن، وجسد ثقيل الوطأة يخنق أنفاسه، ويشعل مؤخرته بألم لا يطاق. انخرس صراخه وهو يعتقد لحظتها، أنه في غرفة بيتهم. بعثره الهول متيقناً في تلك اللحظة الملقاة خارج الزمن بأن الذي ينوء تحت ثقله لم يكن سوى والده الحبيب. صوت ريشات المروحة السقفية يضرب انسحاقه برتابة، تتناوب مع سعير اللهاث المنصب من فوقه، واللافح قفا عنقه. انطحن. انصهر. استنجد بقتيل الوقعة:

ـ دخيلك.. خلصني من هذي الشدة!!!.

طر.. طر.. طر... ظل يدور، ويدور في فراغ أجوف محبوس الصراخ... ذات الفراغ وهو يتدلى مقطوع الأنفاس من ساقيه المربوطتين ببكرة مروحة مديرية أمن الديوانية.. طر...طر... ها... ها... دوران رتيب لا يني يكبس أنفاسه المكتومة، انزلاق أبدي في هاوية لا قرار لها. لهاث دنس يوقد يباس بشرته المنكمشة.. اختناق... قرف.. رعب.. لسع ألم يصلي الروح. رأسه ينتفض في انزلاقه المريع، جبهته تحفر في القطن، أصابعه تتشنج متشبثة بحافتي الفراش... بهوة الفراغ. تَحَمّلَ السحق إلى أن تخافت لهاث أبيه الذي انتحى بثقله جانباً. لبثَ جامداً في تمدده المنتهك على بطنه. يطبق أجفانه، وينصت لتلاحق ريشات المروحة النافثة سعير هوائها الكابوسي إلى أن أتاه صوت غريب جعله أكثر اضطراباً:

ـ قم اغتسل!.

رجته الدعوة رجاً. أخذ يختض في لبوثه، فاركاً جبهته المدفونة بالتراب. هدأ قليلاً. فر عنقه فأبصره.. كان يعدل لباسه

الداخلي ويرمقه بعينين غير مباليتين، يسكن في فتورهما استرخاء لذة مشبعة، ذات الفتور المختلط بالاحتقار المائر بعيني المحقق القاسيتين، وهو يهتك سر رفاقه، ذات العينين الفاترتين المتوحدتين، السائحتين بطلاسم وأحجبة معاني الحروف المتصلة، المتفارقة، الملمومة، الممدودة، المنغلقة، المفتوحة، المنحنية، المقعرة. نفس القسمات لكنها شائخة الآن. من استلقاءته المباحة، حملق مذهولاً بالسقف الخفيض، بالنوافذ المربعة وزجاجها الأغبر. أجفله بريق عيون الأئمة الرانية بحياد أبدي إلى طوله المسفوح المتلظي بسعير الفراش. لم يستطع حراكاً. لم يستوعب بعد معنى وجوده بهذا المكان.

- قم اغتسل يا بني!.

احتدمت بنفسه الرغبة في سحق قسمات الرجل المنتشية، الرامحة صوبه، في تحطيم العالم. وانكظمت محسورة كسيرة. قفز مغطياً بارتباك جسده العاري، المنهوب برداء الحداد الأسود، المتكور حول عنقه، وهرع راكضاً نحو الفناء الفائر بمرجل السماء. راح يجري ويجري لاهثاً، يائساً، ينتحب بمرارة ويصفر في رأسه دوي غير مفهوم ظل يرافقه طوال العمر.

أقلت قدميه الطامستين في سبائك الطين، وانسحب إلى عرض الفناء، لينتقي موضعاً يشرف منه بوضوح على ما يجري في الغرفة. لم يزل الشيخ هامداً في جلسته الخانعة، يحدق في حلكة الفناء، وقد كف عن التجويد.

تابعه وهو يطبق الكتاب، ويلفه في حلته الخضراء، ثم ينهض متكئاً على ساعديه ليتراجع إلى عمق الغرفة ويضعه بأناة داخل

تجويف الرازونة. استدار عائداً. طوى السجادة. أقامها في الزاوية القريبة لموضع جلسته. تناول إبريقاً خزفياً، وطلع إلى الفناء. استلقت ظلال الجدران المهتزة بأجسادها الموحلة، وانتشر الضوء الكابي. استشعر بقوة الخطر القادم من ضجيج العساكر الذي بات أكثر قرباً. انشق السكون بعويل طفل وولولة امرأة نادبة. تسمر الشيخ في منتصف المسافة بين الغرفتين. تباطأ اهتزاز الفانوس المتدلي قرب فخذيه، فاستضاء محيط الساقين العاريتين المغمورتين حد الكاحل بالماء العكر. تلفت رامياً شتات بصره، يلاحق ذيول الولولات المتلاشيات الغائرات في قرار السكون. عاود المسير قاصداً حجرة الضريح. يشغل وقع خطاه فراغ الصمت المتخلف، بين وقع بساطيل الجند المقتربة. علق الفانوس بمسمار يغور بأحشاء الأعمدة، فاستنارت الأجزاء العليا من أجساد الأعمدة، وبقع متفرقة من جدار الطارمة. شمر أكمامه، وسرب الماء من عنق الإبريق المائل، غاسلاً قدميه على دكة إسمنتية تقوم بجوار الطارمة. ملأ باطن راحتيه الملمومتين ومررها من الكوع حتى ظاهر الكف. بل جبهته بوشل الراحة. برقت السماء. أرعدت، ثم عم الهدوء، فتغور الصمت. أنصت لخرير الماء المنسكب من عتمة الخزف، لنشيج الماء المندلق من ميازيب السطوح، لطبة بساطيل العساكر المطبقة على مخارج الدهليز. اندفن في هشيم السكون، منشغلاً بطقوس الوضوء، بتلويات زخارف الجدران المنارة بالضوء المسلول، بآثار رصاص شوه جسد الحائط القديم. اندمجت الأشكال ضائعة في العتمة لحظة دلوف الشيخ بفانوسه المتأرجح خلال الباب المفتوح. قطع الفناء خائضاً في وحل

البرك، يلاحقه لغط العسكر الواضح وكأنه خلف سور الفناء الخفيض. لغط وصدى صريخ، نشيج وعويل، ندب وتوسلات، استغاثات يائسة لنسوة وشبان وشيوخ وأطفال يذبحون في ضجيج الأمطار، في عتمات الأقبية والزنازين، في زوايا الغرف المظلمة، في الوديان والسهوب والبساتين، على ضفاف الأنهار، وفي الصحاري الآن ومنذ أقدم الأزمنة. صفر برأسه ذلك الدوي غير المفهوم الذي رافقه منذ بكورة صباه في صبيحة الذبح المعادة كل عام في العاشر من عاشوراء. أربكته خيوط الغبش المنسلة، فأمسك العمود المجرح بالرصاص. حضنه لاهثاً، وعيناه تطلان على جوف المرقد الغائم بضوء الفانوس المحتضر. جنب قفص الضريح المغبر، فرش الشيخ سجادة، وهبط عليها مرتكزاً بركبتيه، ومدّ جذعه إلى الأمام ضابطاً موضع التربة وسط حافتها البعيدة، المواجهة للباب جهة القبلة. تصفح قسمات الشيخ التي شاخت تضاريسها، وأكستها فجاعة السنين الدامية وطول العزلة، المرتحلة في شجون الذنوب نصاعة متفردة، أشعرته بمزيد من الاضطراب الممزوج بالرهبة. تعالت الجلبة خلف السور، فالتفت، ارتج هلعاً.. فمن فم الدهليز الحالك، تدفقتْ العساكر إلى فضة الفسحة الخلفية المعتمة ببقايا الليل. تدفقوا بعيونهم اللامعة، وصخب تزاحمهم. ها هم يتوجهون نحو السور بخوذهم الحديدية المتراصفة. حضرته القيامة بصمتها الأجوف...

ينتحبُ في ضيق الزنزانة وليلها الطويل.. يضرب رأسه بالجدار الملطخ بالدم.. يحفر في تراب الملجأ.. يختنق في عفن الأجساد المتحللة.. يتبعثر مع اصطفاق ريشات المروحة الدائرة

بجنون.. يحس بساقيه تنخلعان من الورك.. فحيح يكوي عنقه.. ينسحق.. يتبعثر تحت اللحم الآدمي الدنس، بين الحشود المائجة بلحمها اللزج المعروق في باحة الحضرة وهي تكبر بيأس.. في الوجوه الخائبة، المروعة، المستسلمة.. يحتضر في قبر الفراش، في عتمة الأنفاق، في رطوبة السراديب، في رمل الملجأ، بين آجر جدران إرسي عمته المتآكل، بين صخور الجبال الصلدة وأفخاذ النخيل وخواء القصب.. مهجوراً.. شاحباً.. يضمره الرعب.. يضمره.. يضمره..

ـ ألا من مغيث يغيثني؟. ألا من معين؟.. ألا من ناصر؟.

وقع أقدام، صرخات استغاثة، صفير ريح هوجاء. رفسات بساطيل العساكر تحطم الباب المخلع، ولولة نادبة، ضجة سور يتهدم. تفور السماء بروقاً ورعوداً. يهدر السيل، يكتسح البرك. يسيح في غبشة الضوء. يغمر قدميه.

اقتحم العساكر الفناء في اللحظة التي تعالت فيها أصوات المؤذنين تنشر الشهادة، من مكبرات صوت معلقة في فجوات تتدور حول أعناق المآذن العالية، المطلة قاماتها الناحلة على سطوح البيوت الخربة، الغارقة، المحاطة ببساتين النخيل المحروقة، والممتدة إلى حافات الصحراء المترامية حتى الآماد السحيقة. ترانيم التكبير طغتْ على لغط الجنود المتدافعين، وطقطقات حديد بنادقهم المنزوعة من الأكتاف. كان الشيخ مستكيناً، غير مبال بما يجري في الخارج، دائباً على القيام والقعود، الركوع والسجود، والتمتمة الخافتة المتهدجة. اندفع مع أولى دفقات الماء الذي اكتسح حجرة المرقد. أصابعه تلتحم

وتكاد تندمج في نحول خشب القبضة المنقوع. تصارخ الجند ساحبين أقسام بنادقهم. في هدير الرعد الراج أركان الأرض قفز نحو ساحل السجادة، التي بدأت تطفو فوق موج الماء. أصبح الجسد الهزيل تحته تماماً. ارتجفتْ يده الشارعة بطعن الظهر. لوى الشيخ رقبته، ورمقه بعينين بارقتين تسكبان فيضاً من حنان قديم. النصل الدقيق يلمع في جموده لصق التواء العنق. العينان التعبتان المؤطرتان بالغضون.. أليفتان، عارفتان، تفصحان ما خفى من الأمور. انحلتْ مفاصله، فسقط السكين واختفى في الماء المتدفق من الباب. تهالك جواره على السجادة.

وحيدان على سطح البساط الطافي.. وحيدان بين الأمواج الفائرة التي أغرقت قفص الضريح. مد الشيخ يده، ومسح بأنامله الناحلة جبهته المتفصدة بساخنها. خدره ملمس الأصابع الحانية، فهوم نائداً برأسه الداوي بفوران الماء، وصخب العساكر المتنادين في هدير الطوفان، منسحراً بتقاطيع جده الذي مات منذ آلاف السنين...

أراد أن يسأله كيف قدم إلى هذا المكان؟.

أراد أن يسأله لم حل محل ذلك الفراش الذي اغتصبه في أول صباه بالعاشر من محرم؟.

أراد أن يسأله إلى أين سافر كل تلك السنين؟.

أراد أن يروي له ما جرى أثناء غيابه الطويل؟.

أراد أن يبوح له بأسرار نفسه الدفينة؟.

أراد أن يلومه على...

لكن الجد هز رأسه هزة العارف، وأفرد ذراعيه الضعيفتين بعناء ليحتوي جسده الخدر، فولج مستكيناً بين أحشائه الساخنة، غائباً عن ضوضاء العساكر ورعود السماء الهائجة ورحلة العمر وهدير الماء الذي طفق يجرف أشلاء الفجر الكابي.

تموز 1992 - الدانمارك.

قسوة

أخذوه في ليلة حالكة والجبل يهتز ويضاء بالانفجارات المتوالية وأزيز الرصاص وقنابل التنوير. أخذته في باطن السحر والضجيج والبرد دون معطفه العسكري القديم الوجوه الأليفة ذاتها. الليلة تشبه ليلة وقوعه بأيديهم قبل أربع أو خمس سنين، حينها انذل ناسياً سوية مجده القديم. ظل هاجس الموت يسكنه وهو يقبع في رطوبة غرفة الطين العفنة المظلمة، ثم أخذ بالتذاوي مع مرور الشموس وانبعاث إلفة غريبة مع أولئك

الأعداء. كانوا يمارسون عليه السخرة طوال النهار، لكنه يجد الساعات التي يقضيها في الهواء الطلق أسعد الساعات، أشجار وضحك، عيون ماء وصبايا القرى المارات، أشجان التذكر عن المدن البعيدة والنساء الطفولة والأحلام والعائلة التي يتبادلها مع الحارس الموجه فوهة بندقيته نحوه أينما حل، وهو يقطع الحطب، يحمل الصخور، يتناول الطعام أو أثناء التغوط في العراء. عاد لا يجفل حينما يمازحه أحدهم قائلاً:

ـ ستعدم غداً!.

وهو يرى وجوههم المرحة، فيرد ضاحكاً بوجل:

ـ كل شيء إلا هذا ما زلتُ صغيراً لم أر من الدنيا شيئاً.

أحياناً يداخله الرعب فيسأل بوهن:

ـ أحلفك بأبيك.. صحيح؟.

فيضحك الحارس، مؤكداً بأن كلامه مجرد مزاح، فتتلاشى الرعدة الماحقة، المرجفة صلابة العظام.

كانوا يدفعونه بخشونة، مع رهط السجناء السائرين على مسالك منسية تبتعد عن الضجيج والأضواء الهاطلة عناقيد خلف القمم. يتعثرون تحت السماء الفاترة الخفيضة ونجومها العالية المتذاوية في عمق أودية سحيقة. على فسحة مستوية يضيع عند حافتها الممر الوحيد المهجور، أوقفوهم وأمروهم بالحفر بمعاول صدئة كانوا يحملونها طوال الطريق. كان مشتتاً بأخيلة بقايا الأحلام وهو يختبر صلابة الأرض والقلوب. مع أول ضربة أدرك الأمر برمته، فالتفت مبحلقاً بالوجوه التي انطبعت في

القلب. الوجوه التي أطعمته وهددته، سقته وضربته، مازحته وألجمته، أرعبته وبادلته شجن التذكر. بادت قواه فسقط المعول. زجروه بأصوات خشنة.. خنقته العبرة، وأوجعته النبرة القاسية، القاطعة. حاول التماسك كالآخرين اللائذين بصمتهم، والمشغولين بالحفر. حاول.. دون جدوى.. فانفجر معولاً يردد بصوت مذبوح:

- لماذا.. لماذا.. لماذا..؟.

هبطت عليه الأخامص لاسعة. أخرسه الفزع من قسمات وجوههم الكالحة، الكابية التي كانت بالأمس مرحة، تمازحه وتأمله بفرج قريب. ابتدأ بطعن التراب، وإزاحته عن مستطيل بقدر طوله وعرضه. غرسوه على ساحل حفرته. اهتز للحظة تلقيه وخزات الرصاص المخلصة، وطارت به إلى فضاءات أسحار أبدية باهتة الظلمات، وسكون نجوم شاحبة خرساء. ترنح كسكران قبل أن يتهاوى في يم حفرته الضحلة.

كان ثمة من ينتحب.. وانسدل صمت.

30/8/1994 - الدانمارك

AlYaa منشورات

أرباب الرعب

إلى: الشهيد محمد حازم مرتضى
1970-1995

عند منعطف زقاق يفضي إلى شارع عريض تأخرتُ عنه قليلاً فسبقني إلى الرصيف المضيء. في اللحظة التي شرع فيها بالالتفات صوبي، انقضوا عليه وسحبوه إلى باطن سيارة مفتوحة الأبواب. هالني المشهد فتراجعتُ ذعراً، مأخوذاً بمزيج

من المشاعر والأحاسيس، رعب وفداحة عجز مخزي.. إنهم يأخذون ابن أختي، الذي بمثابة ولدي فقد ربيته بين يدي حتى شب وأصبح يافعاً.. إنهم يضيعون قطعة من قلبي في المجهول.. إنهم يلتفتون صوبي يا ربي.. ها هم قادمون.. إنهم يقتربون.. عيونهم تقدح شرراً.. أين المهرب يا رب السجون والمعتقلات؟. إلى أين أتوجه يا رب التعذيب؟.

استدرتُ على أعقابي، وركضتُ بين أزقة ضيقة مخترقاً دهاليز حالكة تشبه الأنفاق. أتضرع في لهاثي المحموم إلى رب الرأفة، عله يقيني شرهم الماحق الذي ذقت أواره منذ سنين. أركض في شوارع غريبة تارة، أليفة تارة أخرى. لا بيت يأويني من العيون المنبثة في المداخل والأسواق، والتي أضطر إلى اجتيازها مجبراً في دوراني المجهول.. عيون كثار، عيون من نار، تعرفني منذ آماد بعيدة، عيون تلاميذ كانوا معي في المدرسة الابتدائية، عيون رفاق طفولتي. من أين يا إلهي أنفذ إلى مكان آمن؟ من أين؟ أحتمي بأجساد المارة المزدحمين، محني الرأس. أقرفص أحياناً بين الأرجل، كأنني أبحث عن شيء سقط مني متوارياً عن أزواج عيون أحاطت بي دون أن ترصدني. ألبث في قبوعي الذليل إلى حين، مرتعداً، هاجساً بالأيادي التي ستنقض علي، رائياً اللحظة الرهيبة تلك، مبتدأ العذاب، كوة الألم، بوابة العالم السفلي، بأقبيته وأنفاقه الحالكة، الموحلة العطنة، وصمتها القبري الذي يضج بغتة بالصراخ المتقطع الخافت الداوي.. أي امتداد لانهائي للحظة الماحقة تلك.. وأي الخيالات والأماني تحتشد فيها. تخيلت ابن أختي عارياً، معصوب العينين، مكبل القدمين، موثوق اليدين من الخلف،

ملقى في وحل زنزانة ضيقة كتلك التي استضافوني فيها آخر مرة، يلبث في سديم اللحظة بانتظار دورة الهلع، وآلهة الشر المشغولة بفريسة بشرية تئن بين يديها. يصبر نفسه بالمعاني والكبرياء باعثاً روح المقاومة، ومغالباً رعدة الهلع، كحالي في أول اعتقال. تخيلتُ نفسي عارياً يرمونني جواره. تخايلت أنفاسهم تحرق قفا عنقي.. إنهم يمدون أذرعهم. تمنيت نفسي نملة ألج ثقباً في الأرض، كائناً من كائنات ألف ليلة وليلة بحوزتي طاقية إخفاء.. لا ليس واحدة بل عشرات أوزعها على من تبقى من الأحبة والأصدقاء.. لا.. لا.. بل مئات الآلاف.. لا.. ملايين من الطاقيات أحمي بها المساكين من جور الظالمين. كدتُ أنصهر وراحة كف تربتُ على كتفي برقة. أنهم هكذا يبدون أول الأمر أدباً جماً، لكنهم يستنمرون ما أن تقاوم الفريسة. انكمشتُ متجمداً. لم أرفع رأسي إلا حين سماع صوت يسألني بود:

- أخي.. أتحتاج إلى مساعدة؟.

تمالكتُ نفسي. شكرته على عجل. تلفت حولي، وغصت ثانية في الزحام. أفكر بملجأ يضمني. مررت بدكاكين أعرف أصحابها.. هذا عمي خليل الحلاق رآني من خلف الواجهة الزجاجية وتجاهلني. توقفت قبالة الواجهة عله يراني لكن دون جدوى. قررت اقتحام الدكان كي أخبره بضيق حالي.. لكن الباب الموصد صدني.. أذلني. قرعتُ بجموع كفي زجاج الواجهة الشفاف الصلد.. رحت أصرخ.. وأصرخ.. ممعناً في القرع حتى كلت يداي. كان ينظر عبري إلى الشارع الضاج ويتحدث مع الزبائن المالئين المحل، وكأنني من أثير. ثمة عيون

تتقادح خلفي على الرصيف المقابل، وأُخر تحتل ناصية الجسر الخشبي القديم، تدور محاجرها القاسية متفرسة في وجوه المارة. وسعتُ خطوي مبتعداً. أسير لصق الجدران. جبتُ شوارع المدينة. قرعتُ أبواب بيوت الأقارب، واجهات محالهم. أنكرتني وجوه الأعمام والأخوال، المعارف والأصدقاء المنشغلين بشؤونهم عن محنتي. من ورطني معهم.. من؟.. ليس لدي أية مشكلة، ولم أتورط في العمل مع أي حزب سري، كما فعل أخي الصغير الذي ضيعوا أثره قبل عشر سنين. وفي كل مرة يخطفوني فيها من الشارع، يطلقون سراحي بعد أيام.. آي ي ي ي.. إنها الحرب التي ألقوني في جحيمها.. لا.. لا أريد الموت.. لا أريد.. أحب الحياة.. الحياة.. الحياة.. لكن أين أنا الآن؟ أين زوجتي.. بنتي .. ولدي؟ أين أصدقائي؟ أأكون واهماً.. أيكون كل ما مر ليس عمراً، بل مجرد أوهام وأحلام؟ وإلا ما معنى هذه الأمكنة والبشر الصم البكم، أين بيتي؟ وما هذا المزيج من الأمكنة الأليفة والغريبة؟ من أين قدمتُ.. وإلى أين أبغي؟ ولم انقضوا على محمد بتلك الوحشية؟ وما هذه العيون المخيفة؟.

أنا في قعر طلاسم قديمة.. في أحجية كتب السحر.. في زوايا مدن ألف ليلة وليلة.. مدن الروايات. اختلط علي الماضي بالأخيلة بالأحلام، الحاضر بالهواجس بالأوهام. دخلتُ في عنق زقاق ضيق. خضتُ بوحله، لأتيه بباطن أقنية تصعد وتنزل، تتطوى وتستقيم، تؤدي إلى بعضها في متاهة بدت لا نهاية لها. أحدق بخشب الأبواب الموصدة، عل واحد من هذي المنافذ ينفتح، ويأخذني إلى أحضان دافئة، حنونة. تلوثت ثيابي بأوحال الدهاليز النازة، وامتلأ صدري بروائح الرطوبة العفنة، مستغرباً

من خلو الأزقة التي يدوي برأسي ضجيجها القديم، ضجيج الصبية والأطفال، صياح النسوة وهن ينادين على أطفالهن المشاكسين، أو يتخاصمن متبادلات بذيء من الكلام، نداءات باعة اللبلبي والباقلاء المسلوقة والرمان وشعر البنات وبيض اللقلق والعسلية والدوندرمة. صمت. هسهسة. صمت. لهاث أنفاسي. صمت. فحيح. أخوض في الأوحال اللزجة متمسكاً بالحيطان المتآكلة. أخوض في السكون والظلام. ومن فجوة نفق أشد حلكة سمعتُ صوتاً طفولياً يناديني بخفوت. اقتربتُ من فمها بوجل، وسكنتُ مرهفاً السمع:

ـ خالو.. خالو.. خالو..

أرجفت قلبي نبرته الأليفة، وأولجتني في ضيق النفق الواطئ السقف.

ـ خالو وين تيهتني؟ خالو..

وشرع بالنحيب. أيقظني نحيبه من تشوش ذاكرتي، فاندفعتُ باتجاه مصدر الصوت وجلاً فرحاً، موقناً إنه محمد ابن أختي وداد الجميلة، الذي اعتقدتُ أنهم أخذوه قبل لحظات.. لا.. قبل أيام.. قبل.. لا أدري.. قبل دهور.. لا.. في الكابوس.. فها هو أمامي ملتصقاً بالجدار، يختض رعباً، ما أن رآني حتى اندفع من جلسته راكضاً، ودفن وجهه بين ساقي مردداً:

ـ خالو.. حبيبي.. وين عفتني؟.

حملته بين ذراعي، كان نظيف الثياب وكأنه لم يكن يتوسد أرضاً موحلة، ويممتُ صوب كوة ضوء. امتصتني الزحمة

والعيون. أمعنتُ في ضمه والعيون القادحة تدرس خطوي. كنت مغتبطاً بدفئه اللصيق رغم فداحة رعبي، مكذباً مشهد خطفه قبل لحظات. دلفتُ إلى أول محل صادفني، كان محلاً لبيع لعب الأطفال. زحزح جسده وانزلق بين ذراعي راكضاً صوب درج خفيض، صُفتْ عليه سيارات صغيرة ملونة. تناول واحدة وضمها إلى صدره. كنت مشدوهاً أنقل نظراتي بين المارة ومحمد، هلعاً من خاطر قدومهم وأخذنا معاً. انتابتني رعدة ومخيلتي تتمثل لحظة الإطباق علينا، فهببتُ إليه. حملته عنوة، واندفعتُ نحو الزحام، باحثاً عن مخلص مستحيل يقيني أرباب الرعب المتحكمين بصحونا، منامنا، أحلامنا..

- سأعود به إلى بيت أختي.

قلت لنفسي، وانطلقت في متاهة الأزقة. حدقت إليه، كان ساكناً بين ذراعي المعروقتين، غافياً مثل ملاك، وعندما عثرت على منعطف الزقاق المؤدي إلى دارهم هبط علينا مساء غريب، بمزيج ألوانه القاتمة، فضية وقمرية ونارية معجونة بالرماد، مساء مثل غبش معتم، ليل مثل نهار، وسكون حجري أجوف لف الأزقة التي أقفرت بغتة. وأنا أستدير به، رأيت امرأة وحيدة ممزقة الثوب، تخمش بأظافرها الصدر العاري، الوجنتين، البطن، وتنود مثل سكرانة، ولصق الجدار يبرك رجل أسمر، شعره بلون الفجر، يفرك بشرته بالآجر، جمدتُ مبحلقاً في المشهد الصامت، في النود الأخرس، في صندوق خشبي مغلق يمتد مستطيله بمواجهة باب بيت أختي المفتوح، في ميلها لتغطي بجسدها التابوت. تلمستُ جسده الغض الغافي، لكني أحسستُ بليونته تشف.. وتشف.. وتشف متحولاً إلى دخان.. طار

بأجنحته نحو المرأة الحاضنة صلادة الخشب، الساكنة فوقه سكون الموتى لينسل خلال الشقوق إلى عتامة الصندوق.. إلى حضنها.. غائراً من جديد في بحره الأول.

3/30/ 1995 - الدانمارك

لا أدري

- 1 -

ـ أكره نفسي.

ـ لِمَ؟.

ـ لا أدري.

صاح العريف:

ـ كفى.. اسكتوا.. واكنسوا الساحة.

وبثقل انحنى الجنود، يقبضون بأيديهم أغصاناً خضراء لشجرة يوكالبتوس. يمسحون الإسفلت المشقق، ويختلسون النظرات إلى قدمي العريف أينما ذهبتا.

- 2 -

قالت شجرة يوكالبتوس لصاحبتها الواقفة جوارها، كانت الشمس لم تزل نائمة، والفضة تقطر بزوايا السماء.

ـ لقد جاؤوا مرة أخرى.

ـ ماذا تصنع لهم؟.

ـ لا أدري.

كان ثلاثة جنود يتقدمون نحو الأشجار. وقف أحدهم، حزين الوجه، سأله زميلاه:

ـ لم توقفت؟.

- ....

ـ ما ألم بك؟.

كان مطرق الرأس، يفكر بالشجرة، فكلما ذهب إليها غبشاً، ليجلب غصناً يكنس به، يراها كجسد أمه الحزين، حينما يوسعها أبوه ضرباً فتركض إلى غرفته لاهثة مولولة، مخطوفة الوجه، منثورة الشعر، لتختبئ خلف ظهره:

ـ ما ذنبها؟.

ـ ماذا نفعل؟.

- ....

بحزن جروا غصناً.. بحزن قطعوه. ظلت الشجرة تتلوى ألماً، والجنود يحملون الأغصان ويغرقون بالفضة وببحر من الأماني الصغيرة المستحيلة.

- 3 -

كان الغبار يغطي أجساد الجنود، وهم يلقون بالأغصان التي اسود اخضرارها إلى برميل قمامة، سأل جندي صاحبه:

ـ ماذا نفعل؟.

ـ لا أدري.

صاح عريف بجندي يحدق في حائط فارغ:

ـ ماذا بك؟.

ـ لا أدري.

وعند غسق بارد، وقفتْ أم تودع ابنها الذاهب إلى الجندية:

ـ ماذا ألم بك يا بني؟.

أجاب بأسى:

ـ لا أدري.. يا.. أمي.. لا .. أ.. د.. ر..ي!!.

الديوانية ـ آذار/ 1980

العصفور

كنتُ أحلم بالبيت عندما فتحت عيني. رذاذ النوم لم يزل طرياً على أجفاني. اتكأتُ على مسند سريري. بان لعيني امتداد القاعة الطويلة. الجنود يغفون ملتحفين أغطية وسخة.. أنوء كل يوم بحمل حذاء ثقيل وبدلة من الكاكي الخشن، ووجه ضابط جلف يأتي عند أول نقطة للفجر يثقل وجوهنا.. القاعة غارقة بالعتمة، والمصباح الخافت المعلق في نهايتها لا يضيء إلا عدة أسرة قريبة منه. تلمستُ وجهي. نزلت من السرير. احتذيت بسطالي

الثقيل. مشيت بممر القاعة.. أقف كل يوم مصلوباً على خشبة من الهواء.. عند الغبش أقف.. مع غناء العصافير على أشجار الله أقف.. متصالباً.. متوجساً من صبغ بسطالي، كي ملابسي، طول شعرة من رأسي.. حابساً أنفاسي.. أفكر في الناسخ والمنسوخ، والظالم والمظلوم. سرت بين صفوف الجنود الغافية قاصداً باب القاعة. نفذت خارجاً. لفحتني برودة آخر الليل القارسة. ارتجفتُ. تأملتُ الحديقة الصغيرة الممتدة بامتداد القاعة والتي زرعناها بالإكراه والشتائم. فركتُ كفي، وخبأتهما بجيبي بنطالي.. ذكرني الفجر بالسقف الصفيحي المثقب لسوق مدينتي، والمقاهي ووجوه الأصدقاء.. جرفني الشوق. أسندت ظهري إلى جدار القاعة. رفعتُ عيني إلى السماء.. جئنا إلى الجندية كل منا لا يشبه الآخر وبعد مرور أسبوع.. أسبوع لا أكثر عدنا لا يميز أحدنا الآخر، الملابس نفسها، الاهتمام نفسه، الخوف والخشوع والخواء ومراقبة خطى الضابط وصفارة التدريب والتعداد والأكل. سنونا كصخور سنت بالماء، فلم يعد أحدنا يعرف صاحبه إلا بصعوبة. خطوط الفجر انتشرت بأحشاء الظلمة التي راحت تلملم أطرافها وتسري عن السماء.. فتح لي سكون الفجر نافذة على سيل من الغسق لا ينقطع.. حالماً أقف.. غريباً أقف.. والغسق قدّ امرأة طالما حلمتُ بها.. حلمت بكل النساء.. والغسق تحت قدمي كلب أليف.. سر يلف وجهي الطفل.. غرقتُ.. غرقتُ مقترباً من نافذتي، منفصلاً عن جدار القاعة.. هممتُ بإلقاء نفسي خلالها.. و.. و.. رأيتها تتكسر أمام عيني وصوت الصفارة انطلق حاداً.. ملعوناً، يمد لنا درباً إلى صفوف منتظمة، وخوف يومي، يتبعه لغط الجنود الراكضين. استعدينا على

صراخ العريف:

ـ استاعد.

مسبلين أذرعنا بامتداد سيقاننا كقتيل ينام على خشبة ساكناً.. جامداً. قدم الضابط من طرف الشارع الذي يقطع وقفتنا متأبطاً عصاه الغليظة. سهوتُ أرقب عصافير ملونة تتقافز بين أغصان السدر مزقزقة.. تتزاوج في كل لحظة، ملتذة بالغبش ومطلع الشمس. وقف الضابط يحدجنا وهو يهز عصاه بعصبية وضيق. فتشنا واحداً واحداً، متفحصاً من أسفل أقدامنا حتى الرأس المحلوق، وقلوبنا تخفق باضطراب خوفاً من الشتيمة والسجن. اجتذبَ عينيّ عصفورٌ طار من شجرة السدر، وانطلق أفقياً. اصطدم بمرآة القاعة الكبيرة المعلقة في جدار الطارمة، وهوى عمودياً على الأرض، وقبل أن يبلغها، ضرب جنحيه مجدفاً في الهواء، وطار حاطاً على إطارها الخشبي العلوي، استدار بجنحيه وطار إلى إطارها العلوي ثانية. استدار مدلياً رأسه. اكتشفتُ اللعبة. كدت أترك الصف وأركض إليه، أمسكه بكفي، أدفئه. سألتُ نفسي:

ـ ماله وأشياء المرآة.. له الفضاء كله.. والأوطان.. والأجنحة.

كان عنيداً يخدش سطح المرآة، وهي تكيل صفعات موجعة لجسده الصغير. تململتُ وقلتُ للجندي الواقف إلى يميني:

ـ أنظر إلى ذلك العصفور وراقب ما يفعله.

ـ أي.. أرقبه منذ لحظات.

قلتُ:

ـ إنه يعتقد بالمرآة فضاء غير هذا.

ضحك وقال:

ـ إنه مجنون.

قطع حوارنا صياح العريف:

ـ اقطع الكلام.

لزمنا الصمت.. وذهبتُ إلى العصفور ناسياً نفسي.. كدت أركض عندما التقطتْ عيناي نقاطاً صغيرة من الدم، انتشرتْ على جسد المرآة، والعصفور منهكاً يسقط على البلاط. نسيتُ الصف والضابط والجندية ونفسي عندما حاول الطيران إليها فارداً جنحيه اللذين خفقا بلاط الطارمة.. وبغتة وجدت نفسي أفقد توازني هاوياً إلى إسفلت الساحة، وصوت الضابط يخدش سمعي:

ـ كلب سِرْ مع الآخرين.

آذار/ 1980 الديوانية/ العراق

حصار يوسف

يجلس يوسف على كرسيه، في زاوية الغرفة التي هدأت للتو. يدور عينيه المخذولتين. الأرك فارغة. بقايا الطعام متناثرة، على الطاولة القائمة وسط الغرفة. كل شيء ينام الآن. الكتب في أدراجها، الليل في الأزقة، القطط، الستائر الساكنة. الخطى التي كانت تضجُ في الغرفة، تحولت إلى دخان. رائحة الخمر قوية تكتم أنفاسه. يلبث خاملاً، متكوراً يفكر في يوم العمل المتعب، الذي ينتظره، وجريه خلف أخيه المساح:

ـ اجلب الحامل.. اغرز الشاخص.. ناولني قدح ماء.

ويرميه نظرات ضيق وازدراء، تحيله رماداً. أين يذهب؟ إلى أين يلتجئ؟ إلى أين.. ينهض من الكرسي. يبسط الفراش على البلاط. يستلقي. شيء ما ثقيل يضغط على رأسه. هذا السكون.. تك.. تك.. تك.. دقات الساعة الجدارية رتيبة ترن بالسكون. الضوء أحمر شديد الخفوت. الباب مغلقة. شيء ما يكبل جسده. مشدوداً إلى الفراش.. تك.. تك.. تك.. تجيء من خلف رأسه. السكون.. الدقات.. السكون.. يسمع خطى تهبط السلم، خفيفة منزوياً على أريكة خشبية بزاوية الغرفة. زهرة تروح وتجيء أمامه، بثوب أسود فضفاض، فوالدها مات قبل شهر، سعاد بوجهها المستدير وشفتيها المكتنزتين الحمراوين، وعينيها الواسعتين، وقامتها الرامحة، يلمحها تلج الغرفة الأخرى، وتعود بعد لحظات بثوب جديد شفاف. حلمتا الثديين الناهدين، وخطوط اللباس الداخلي، وظلال السرة المعتمة بدت واضحة، وهي ترتمي جنب عشيقها الأسمر. ليلى بوجهها البيضوي، وأنفها الأقنى ترتخي إلى كتف زوجها، واضعة ساقاً على ساق، بشكل انحسر معه ثوبها عند منتصف الفخذين، فبان لحمها اللدن. ضجيج الضحك يدوي بصمته.. وحيداً منزوياً يخالس النظر، وهم يرتشفون الخمرة.

ـ ماذا تقول في ثوبي؟.

ـ وجهك أجمل.

ـ قتلني اللون الأسود.

ـ كان والدك نبيلاً رحمه الله.

.. ها.. ها.. ها.. الضحك.. جامداً.. لا أحد يتوجه ليوسف بكلمة.. الظلمة خلف النافذة. سعاد تنحني إلى وجه صاحبها، تمص شفتيه، يرتفع الثوب الشفاف كاشفاً منبت الفخذين من الخلف.. جامد الوجه.. تك.. طب.. الخطوات تزداد وضوحاً. مسمراً في فراشه، متوتر الأعصاب. يحاول النهوض. يستند على ساعديه.. تجمدتا لصق البلاط كقطعتي خشب.. طب.. طب.. يد تعبث بأكرة الباب.. صر..صر.. أزت الأكرة.

تقول زهرة:

ـ اصعد، نم معنا على السطح.

يجيب بصوت متخشب:

ـ لا.. سأنام في الغرفة.

يصيحون به:

ـ لماذا؟.

- ......

يصر، وبعينين حزينتين يتابع أقدامهم ترتقي درجات السلم.. وجه أبيه القاسي.. زوجة أبيه يلفان حاجياته بصرة، ويلقونها في الشارع، يقول أبيه:

ـ أصبحت كبيراً.. ولديك ثلاث أخوة.

تقول زوجة أبيه:

ـ اذهب إلى أمك.

وجه أمه المهجور.. الهرم، غرفتها الباردة الرطبة في زاوية

نزل قديم من أزقة بغداد القديمة. لا تكف عن الندب والشكوى.. ها.. ها.. صدى الضحك يتردد في رأسه.. تك.. تك.. طب.. تك.. الخطوات تختلط على السلم المفضية إلى السطح.

.. ليس لدي سواك.. لكنك شخت قبل الأوان.. وتركتنا مذعورين، نلوذ بزوايا غرف عتيقة، مشققة الجدران، باردة، نذبل في رطوبتها، ونخشى وقع أقدام تقترب.. فنتفرق هلعاً، هاربين من النوافذ، قافزين من السطوح.

تأخذه حيرة الشارع.. إلى أين يذهب؟ إلى هذا.. أو ذاك.. أو.. الكل متشابهين، الكل لديهم مشاغل تلهيهم عن همومه.. وأمه.. لا.. إنه يكتئب من الشكوى، ووجهها المهجور القانط يفتت قلبه. الأكرة أكملت دورتها. في الضوء الأحمر الخافت، يندفع الباب ملياً.. ملياً.. ظل ينضح أنوثة يظهر من شق الباب.. الخوف.. الخوف.. يسد عليه الأبواب.. الكل يتحاشاه.. الكل ينخطف لونه حالما يراه.. تك.. تك.. تك.. دقات بطيئة قاتلة.. تنفتح الباب إلى آخرها. تدخل زهرة بقامتها المتوسطة، متوردة الخدين، نضت عنها ثوب الحداد الأسود، وارتدتْ فستاناً أحمر شفافاً.. تدنو منه.. متجمداً في فراشه.. يتصنع الإغفاءة.. تمد ذراعها البضة العارية.. تزيح الغطاء عن جسده حد النصف.. يباعد أجفانه.. تميل فوقه، قمراً من نار.. الثوب شفاف أحمر. الصدر عار أحمر.. الوجه أحمر ينفث عطراً.. تقطر كلماتها الناعسة:

- يوسف.. يوسف.. استيقظ، لتذهب مع أخيك إلى الشغل.

تك.. تك.. الاحمرار يغطي جسد زوجة أخيه المكتنز، ثوبها الناعم الطويل يخط خلفها وهي تعود أدراجها.. تغيب في ظلال

الممر العاتم.. أصابعها الطويلة الغضة تلتم، وتسحب الباب من أكرتها. تسدها. الخطى الناعمة تخفت شيئاً فشيئاً. صرير باب آخر يفتح، شيء ما يدور، انهمار ماء حنفية، طرطشة، صوت أقدام تصعد السلم.. تب.. تب.. تب.. قطرات الماء تتساقط على البلاط.. دقات الساعة رتيبة.. تك.. تب.. تك.. تب..

يقول وجه شاحب:

ـ أوثقوا ذراعيه خلف ظهره، بعد أن خلعوا عنه ملابسه ورشوا على جلده التيزاب قطرة قطرة.

- ....

عندما أطلقوه، كان مرتج العقل.

- ....

ـ ظلّ يفتر بشوارع المدينة، يكلم أشباحه.

- ......

ـ صدقني.. اترك .. طـــــ.. ززززززز بالسياسة.

تك.. تب.. تب.. وجه أمه يشحب.. يشحب.. يصغر.. تك.. يصغر.. أصابعها تستطيل عدة أمتار، ناحلة، تبكي دون صوت بدمع أصفر. يحملها أبوه على ظهره، ويهرول بها خارجاً إلى حديقة البيت الخلفية. تصرخ.. تصرخ فينتشر صراخها الأخرس غائراً في ملامحها المرعوبة. تغرز أظافرها في عنقه. يعض خصرها.. جامد الروح.. يحدق من نافذة طفولته بما يفعله أبوه، بعينين ثلجيتين.

تقول ليلى:

ـ أموت بك.

تهمس سعاد:

ـ الليلة يا حبي، ماذا سأفعل بك؟.

وتنهض راقصة، يتلوى جسدها، ويرتجف خلف ثوبها الشفاف، وكأنها مصابة بالحمى. أخوه يغني بصوته الأجش:

ما خطرتش على بالك يوم تسأل عني

وأنت يا يوسف... من يسأل عنك؟ من.. من؟ وأنت المنسي في حضورك.

ليلى تتمايل في جلستها، وترتشف جرعة من كأسها المترع بالعرق السادة. زوجها الطربان يدندن غامضاً عينيه. زهرة تضحك بخجل، وتهرع إلى المطبخ، لتأتي بطبق آخر.. تب.. تب.. تب.. رتيبة ترن في السكون.. تك.. تك.. القطرات الرقاص. يرمي أمه إلى تراب الحديقة، يقيد يديها. يكمم فمها. يحفر بمعول لامع. عيناها الفزعتان تبحثان عن موقع النافذة، حيث يجلس. ينظر بعجز واستسلام إلى يديها المناضلتين اللتين تمكنتا من إزاحة حبل القنب. شيء ما يشده إلى مكانه. السماء كالحة. يضع المعول جانباً. يدحرجها نحو الحفرة. يسقطها. تتمسك بالحافة. يدوس أصابعها ببسطاله الثقيل. عيناها الهلعتان المستنجدتان تغيبان رويداً.. رويداً.. تك.. تك.. طب.. طب.. قطرات الماء تزداد وضوحاً.. تتلاحق. تطغى على دقات الساعة الجدارية، ثم تصبح كطنين متصل.. شيء ما يضغط على

صدره. شيء ثقيل.

- يحلقون شعر الرأس بموسى حادة. يقيدون يديه إلى كرسي حديدي يتوسط غرفة أدكن من ليل بلا نجوم، يسكن عارياً يختض من البرد منتظراً المجهول. ومن بحر الظلام تسقط قطرة ماء على نقطة معينة من الرأس.. تسقط الثانية.. الثالثة.. الفاصلة بين قطرة وأخرى ثابتة.. الظلمة ولحظات الانتظار.. والمجهول.. القطرة تصبح جبلاً.. ويدفعونه إلى حافة الجنون.

- ....

- اترك.. اترك.. طز.ززززززززز بالسياسة.

طنين الماء يقوى قليلاً.. قليلاً.. ثم ينهمر بهدير في الحمام.. يجلس منزوياً على كرسيه مهجوراً.. يشعر بالغثيان. يكاد يتقيأ. يغادر مكمنه مسرعاً نحو الباب القريب قاصداً المغاسل. يبصر من خلال الباب نصف الموارب للغرفة الأخرى سعاد نصف عارية ملتصقة بعشيقها الأسمر.. تتأوه وهي تلعق أذنه، بينما يداه تعجن وتمسح فخذيها البيضاوين الممتلئين. يعود مرتجفاً إلى مكان جلوسه المغبر النائي وسط الضجيج.. تك.. تك.. خرقت الدقات طنين الماء. دور عينيه.. ستائر النافذة الحمراء.. الجدران المزينة بلوحات جواد سليم، وفائق حسن، بصور فوتغرافية لماركس، لهمنغواي.. الصمت.. الصمت.. فوران الماء.. يلهث.. يلهث.. ناهباً أرصفة الشوارع، يغط في الزحام، يتلفت هلعاً، متوجساً من وجوه مريبة تسعى في أثره، ووجوه أبواب تؤدي إلى أنفاق رطبة موحشة، يلهث، يلهث، مكتوم الأنفاس، مرعوباً. كف ثقيلة تضغط على عنقه.. تك.. تك..

طب.. طب.. أقدام تهبط على السلم، يزداد وقعها.. طب.. طب.. تتوضح.. طب.. ضحك مغناج.. تأوهات.. يخفت طنين الماء يعود خريراً. ضحك مخنوق، جامداً في فراشه.. حفيف ثوب ينزع.. همس خافت.. تأوه غنج.. ضحك مكتوم.. أنت مستعجل ..... ايدك يوه.. تك.. تك.. إش.. إش.. انتظر.. دنتظر.. افتح زر السوتيان.. خرير الماء يعود موصولاً. الستائر حمراء. الباب أحمر. وجه همنغواي أحمر. حصان فائق حسن الجامح أحمر. الليل أحمر. الكون جمرة متقدة. يستعر في فراشه المبسوط على الكاشي. يترمد. يستعر، يترمد. وجه أخته البريء، التي أخذها رجل غريب في ليل عاصفة. وجوه أخوته الثلاثة الهازئة، القاسية.. وحيداً يتكور في زويا الغرف مهملاً منسياً.. لا أحد يتوجه إليه بكلمة. وجه أمه المتظلم، وهي تسقيه شاياً. وجه صديق يبهت.. يبهت.. ويذوي في عتمة الماضي، والأقبية التي أخذته غفلة.. طب.. طب.. ما زال صوت الأقدام الهابطة على السلم يُسمع. حفيف ثوب طويل. حركة أشبه بالعراك. هسهسة ثوب ينزع. جسد سعاد العاري، ليلى، زهرة. فحيح يأتي من غرفة النوم. يقفز من فراشه.. عينا أمه الفزعتان تغيبان في الحفرة.. وجه أبيه القاسي.. وجوه أخوته الساخرة. يسير على مهل، يلج الممر.. تك.. تك.. لحيتك.. أوي ي ي.. لحيتك وخزتني.. ها.. ها.. ضحك مكتوم.. دعيني.. لا.. لا.. ما أتحمل الله يخليك.. آهة.. آهات.. أوي ي ي ي. ينزع قميصه. لم يبق عليه سوى لباسه الداخلي القصير.. يقف.. الباب على بعد شبر.. خرير الماء.. تك.. تك.. الدقات تهدر.. الماء يهدر.. الغرفة تهدر.. يهدر.. الماء.. الماء.. الماء يهدر جارفاً الأشياء..

تهدر الروح.. يمد يده إلى أكرة الباب. تزول الرجفة. يدورها، ويدفع الباب. من كثافة الظلام، برقت عيون تخيّل أجسادها العارية.. الصمت ووميض العيون المتشهية.. الصمت وضجيج الماء والتكتكة الرتيبة. الصمت يدوي، يخنق الساعة والماء، الصمت ووهج العيون الشبقية المشتعلة بألوانها، ماذا يفعل؟ الظلمة شديدة قاسية. خيال يتحرك لونه أفتح قليلاً. يرقص.. يخطر.. يقترب.. يبتعد.. يريد.. يريد.. الزمن.. ماذا.. ماذا؟. الزمن سبيكة رصاص. تنزلق يداه إلى لباسه الداخلي ببطء. يخرطه بأصابعه، فيتكوم بين قدميه.. ضحكة مكتومة. يسكن تمام السكون. آهة رفيعة. الظلمة والصمت الساقط مرة أخرى. يتحسس الجدران بأصابع متوجسة. يضغط على زر المصباح. طق.. يرى نفسه عارياً، معروقاً، لاهثاً في مرآة الزينة المقابلة، ووحيداً وسط صمت أشياء الغرفة.

1982 أرياف السليمانية/ العراق

إشارة

نشرت القصص التالية:

1. جنية الأحلام في القدس العربي 1997
2. جورية الجيران في ملحق السفير الثقافي 1997 و في الاغتراب الأدبي 1999
3. أزقة الروح في القدس العربي 1994
4. جرح الحمامة في الاغتراب الأدبي 1995
5. أخيلة العيون في المنتدى الثقافي 1997
6. رؤيا الحفيد في ملحق السفير الثقافي 1997
7. تحجر القدس في العربي 1997
8. لا أدري في الناقد اللندنية ـ ملف القصة العراقية 1994
9. العصفور في صباح الخير اللبنانية 1990
10. حصار يوسف في الثقافة الجديدة العراقية ـ ملف القصة العراقية 1995
11. التآكل في القدس العربي 1999.

صدر للكاتب

1. **رؤيا اليقين** (قصص)، الطبعة الأولى 1994دار الكنوز الأدبية بيروت ـ لبنان.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
2. **رؤيا الغائب** (رواية)، الطبعة الأولى 1996، دار المدى دمشق ـ سوريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
3. **سرير الرمل** (قصص)، الطبعة الأولى 2000، دار حوران دمشق ـ سوريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
4. **الإرسي** (رواية)، الطبعة الأولى 2008، دار الدار القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025).
5. **الحياة لحظة** (رواية)، الطبعة الأولى 2010، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ـ مصر ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
6. **في باطن الجحيم** (رواية)، الطبعة الأولى 2013، وزارة الثقافة، بغداد ـ العراق، الترجمة الإنكليزية 2014 دار صافي، الولايات المتحدة الأمريكية. الطبعة الثالثة 2025 ـ دار الرواد المزدهرة بغداد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
7. **حياة ثقيلة** (رواية)، الطبعة الأولى 2015دار الأدهم القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد، العراق ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
8. **إعدام رسام** (رواية)، 2016دار الأدهم. القاهرة ـ مصر. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
9. **طفلان ضائعان** (قصص)، الطبعة الأولى 2019 دار الدراويش بلغاريا، الطبعة الثانية 2023، دار الدراويش بلغاريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
10. **كل شيء ضدي** (رواية بجزئين)، 2021دار الدراويش بلغاريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)

11. **قبلة الصباح** (قصص)، 2022، دار الدراويش بلغاريا.
12. **دونت سبيك أسطب** (رواية) 2023، مؤسسة أبجد العراق. ـ النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)

منشورات ألف ياء AlfYaa

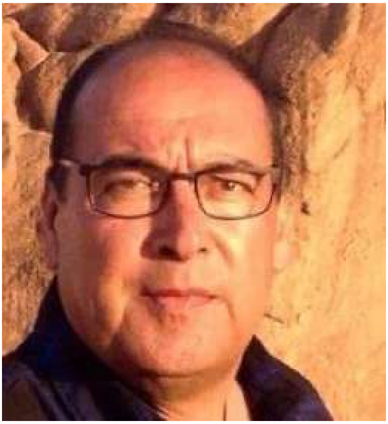

سلام إبراهيم

سلام إبراهيم، روائي عراقي، ولد في 8 كانون الثاني / ديسمبر 1954، في مدينة الديوانية ـ العراق. يقيم حاليا في كوبنهاغن ـ الدانمارك منذ العام 1992، متزوج ولديه ولدان وبنت.

بدأ سلام إبراهيم مساره الحيوي مبكراً في نشاطات سياسية وأدبية، عايش خلالها تحولات العراق الحديث القاسية. تعرض للاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي أكثر من أربع مرات بين عامَي 1970 و1980، بسبب مواقفه المعارضة لنظام الحكم آنذاك.

في سياق الحرب العراقية ـ الإيرانية، تم تجنيده كجندي احتياط إلى جبهات القتال الجنوبية، لكنه اختار الانشقاق والانضمام إلى صفوف أنصار الحزب الشيوعي العراقي في آب / أغسطس 1982. بعد تسلله إلى المدن وعيش حياة مختبئة بين شباط 1983وتشرين

الأول 1983، عاد قسراً إلى وحدته العسكرية، ليُرسل إلى جبهات القتال في البصرة حتى شباط 1985.

واصل مواجهته مع النظام بانضمامه مجدداً إلى الثوار في كردستان، مصطحباً زوجته معه، لكنه اضطر إلى ترك ابنه البكر وراءه. تعرض لجريمة إنسانية جديدة خلال القصف الكيميائي الذي استهدف مقرات المقاومة في "زِيوة" قرب العمادية في 5يونيو 1987، ما أدّى إلى إعاقة رئتيه بنسبة 60%.

في حملة "الأنفال"عام 1988، نزح مع آلاف الكرد إلى تركيا ثم إيران، حيث عاش في مخيمات اللجوء حتى عام 1992، حين استقر أخيراً في الدنمارك، حيث يقيم حتى اليوم.

المسار الأدبي:

بدأ سلام إبراهيم كتابة القصة القصيرة أوائل سبعينيات القرن الماضي، ونُشرت أولى قصصه في صحيفة "التآخي"العراقية (كانون الأول 1975). طوال مسيرته، كتب أكثر من خمسين قصة قصيرة، وتوزّع إنتاجه الأدبي بين القصة القصيرة والرواية والنقد، مع مساهمات في صحف ومجلات عربية دولية مثل "الثقافة الجديدة"، "القدس العربي"، "الحياة"، "السفير"، "الاغتراب الأدبي"، وصحف المعارضة العراقية.